وسئل رضي الله عنه في التصوف الإسلامي

فى كلمة تصوف

١ – يُروى عن أحد الصالحين أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه لفعل راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لهما إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يُلائم هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه : إن طائفة الصوفية ، لو تنزهت عن الفردية والشخصية لتزههم الله عن التسمية تنزيهاً مطلقاً . ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وضع لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : الصوفية .

وسئل الشبلى رضى الله عنه : لم سميت الصوفية بهذا الاسم قال : هذا الاسم الذى أطلق عليهم اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه ، ولم ينته الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت وأطرفها ما ذكره البيرونى من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة . يقول البيرونى :

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر فى الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة وبها سمى « الفيلسوف » فيلاسوفيا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سموا باسمهم ، ويرى البيرونى أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك فقال مفسراً ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصفة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبى ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصيِّر من صوف التيوس .

ورأى البيرونى هذا على طرافته ، لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية ، فالبيرونى يقول فى صراحة :

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم ، ورأى البيرونى إذن لا يستقيم ، إلاّ على أن هذا اللفظ ، نشأ فى الإسلام بعد أن عُرفت الكلمة اليونانية وعرف معناها ، وتداولتها

الألسنة ، ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى ، على ما يرى صاحب « اللمع » .

ولكن إذا كان رأى البيرونى لا يستقيم ، فإلام نتجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان ، وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً رأياً ، وينقضها جميعاً .

(ا) فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوّف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمّص إذا لبس القميص ، فذلك وجه . لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

(ب) ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى .

(جـ) ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

(د) وهناك قول أنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى . ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية ينتقد كل هذه الآراء فإنه إذن لا يرى الاشتقاق ، ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد للاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، لقد استعرضنا الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع قديماً ، فهل ترى هناك من جديد ؟

٢ – رأى الباحثين الحديثين فى أصل كلمة (تصوف) :

يقول الشيخ عبد الواحد يحى :

أما أصل هذه الكلمة (صوفى) فقد اختلفت فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة .

إنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية ، وأنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف ، « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكيم الإلهى » فيكون الصوفى الحقيقى إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية إنه : (العارف بالله) إذ إن الله لا يُعرف إلاّ به وتلك هى الدرجة العظمى (الكُلية) فيما يتعلق بمعرفة

الحقيقة ، وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى ، فيما نعلم ، بهذا الرأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، يستسيغه قوم دون برهان وينفر منه آخرون من غير ما حجة .

وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد لننظر إلى الباحثين فى هذه اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم أبا الريحان البيرونى ، فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى هو كلمة (سوفيا) اليونانية .

وقد قال بهذا الرأى (فون هامر) من المستشرقين ، واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين وأيده فى حرارة محمد لطفى جمعة .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون من نسبة الكلمة إلى الصوف فهو : أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير محمد لطفى جمعة : « يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام من صفة الحكمة والفضيلة » وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأى يعطون قوة وتأييداً لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة الأفلاطونية ، وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور/زكى مبارك هذا الرأى فى قسوة وفى منطق سليم ، لقد كان العرب – حسبما يرى – مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصُّوا عليه فى كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب فسموا الطب : (الحكمة) ، وكلمة (حكيم) لا تزال تؤدى معنى كلمة (طبيب) ، والفلسفة نفسها سماها العرب (الحكمة) وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » أما الحكمة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا لمحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان ثم يقول الدكتور زكى مبارك فى ظرف طريف ، وفى صورة من الجد هى تعبير ، أبلغ تعبير ، عن التهكم والسخرية : « على أنه ما الذى يمنع أن تكون (سوفيا) بمعنى الحكمة الروحانية جاءت من كلمة (صوف) وهى قديمة فى العربية » .

إن التصوف ، قديم جدًّا عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف كان علامة

التقشف . فليس من المستبعد أن ترحل كلمة « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأى ، على حد تعبير الدكتور/زكى مبارك : « ليس ضرباً من الإغراب » .

أما الفريق الثانى من الباحثين الحديثين – وهم أكثرية – فإنه يرى أن كلمة تصوف « مأخوذة من الصوف » .

٣ – إننى أرى – كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين – أن لفظ « التصوف ينتسب إلى الصوف ، وكما يقال : تقمص إذا لبس القميص – كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهذا الرأى : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والمرحوم الدكتور زكى مبارك ، والمستشرق مرجليوث .

وإذا كانت هذه الكلمة تنتسب إلى الملبس – وهو مظهر وشكل ورسم – فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال ، وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلى للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ، إذ المعنى قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين ، كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى والأصل للاسم وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معروف لا شأن له بالمظاهر والأشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون فى قيمته أو فائدته فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين .

على أننى أرى – كما يرى كثيرون غيرى – وكما يثبت التاريخ أن هذه الكلمة (تصوف) لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهمه الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة الزاهدين والناسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس تمشياً مع فكرة دينية ، وإرضاء لشعور تنسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله . ويتعذب بها بعض الناس

إرضاءً لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عملى يرى أن السعادة فى الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات والبعد عن الشهوات ، وذلك هو الزهد . وسواء أكان [illegible] الدنيا ديناً أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم العصور . فالدين صاحَب الدنيا منذ نشأة الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد – من ناحية الملبس – فى الصوف ما يحقق أهدافهم التى تتصل بالتقشف والخشونة ، فهو متين رخيص لا يحتاج الإنسان معه فى الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ، ذلك أنه لا يبلى بسرعة فتصوفوا ، أى لبسوا الصوف ، وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، أو أطلق الاسم مصادفة فذاع وشاع . وأصبح الزهاد يعرفونه – فى البيئات العربية – باسم « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد كانوا موجودين فى العصر الجاهلى تديناً أو منطقاً ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام تديناً أو منطقاً ، حتى إذا كانت رابعة ، وكان الجنيد ، وكان ذو النون ذاع التصوف ، وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين الصوف ، وأطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف ، هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف . ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ إنها تمت بصلة حرفية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء ، وصلته ظاهرة ، والصف (الصف الأول فى الجهاد) جهاد العدو وجهاد النفس (والصفة) صفة مسجد رسول الله ﷺ التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد .

والصفة (الصفة الجميلة) .

وسوفيا اليونانية هى التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص . وكان من التوفيق أيضاً : هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره .

فى تعريف التصوف

يتجه الكثير من الناس فى تعريف التصوف إلى الجانب الأخلاق ، وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية ، وعند غيرهم من الباحثين فى التصوف والمؤرخين له . ونذكر الآن عدة أمثلة نتبين منها هذا الاتجاه .

يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء » . وتروى الرسالة القشيرية : أن أبا محمد الجريرى المتوفى سنة ٣١١ هـ سُئل عن التصوف فقال :

« الدخول فى كل خلق سَنى ، والخروج من كل خلق دَنى » .

وأحد تعريفات أبى الحسين النووى ، للتصوف – كما تذكره تذكرة الأولياء ينفى عن التصوف أن يكون رسماً أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » إنه يقول : « ليس التصوف رسماً ولا علماً ، ولكنه خلق » . ثم يعلل ذلك بقوله : « لأنه لوكان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .

ويحدد أبو الحسين النووى – فى تعريف آخر – الأخلاق التى يتكون منها التصوف فيقول :

« التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء » .

هذا الاتجاه الأخلاق فى تعريف التصوف شائع فى الشرق وفى الغرب ، وهو أيضاً شائع فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك – على الأقل – يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاق فى تحديد التصوف وتعريفه .

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو فى الجانب الأخلاق الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين فى المحيط الأخلاق وفى المجتمع . ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية .

ولو نظرنا فى البيئة اليونانية ، لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ، ومحاولا نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلى ،

أو بالأسوة الكريمة . ذلك هو سقراط ، ومع ذلك فإن سقراط ، هذا لم يكن صوفيًّا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية فإننا نجد الحسن البصرى رضى الله عنه من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلا صادقاً للشعور الأخلاقى فى طهره وصفائه ، وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثالى ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفيًّا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

على أنه من الطبيعى أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق فى أسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف .

ومن الطبيعى أيضاً أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفى فيما بين الأساس والثمرة ، فهى إذن ملازمة للتصوف ، وللصوفى ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف .

وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق وهو تعريف (التصوف) بـ (الزهد) ، وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : (التصوف) يفهم منها معنى (الزهد) ولا يفهم من كلمة (صوفى) إلاّ الزاهد فى الدنيا .

وما من شك فى أن الصوفى لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد فى الدنيا شىء والتصوف شىء آخر ولا يلزم من كون الصوفى زاهداً أن يكون التصوف هو (الزهد) .

ويخلط كثير من الناس بين الصوفى الزاهد والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة قالوا عنه إنه (صوفى) .

ولا ريب أن (الصوفى) كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من الصوفية .

ولخلط الناس بين الزاهد ، والعابد ، والصوفى ، حاول ابن سينا أن يفرق بينهم وبين أهداف كل منهم ، يقول : فى كتابه « الإشارات » :

١ – المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم (الزاهد) .

٢ – المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم (العابد) .

٣- المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق فى سره ، يخص باسم (العارف) .

و (العارف) عند ابن سينا هو (الصوفى)

ويتحدث ابن سينا : أن الزاهد قد يكون عابداً والعابد قد يكون زاهداً فيمتزج الزهد والعبادة فى شخص واحد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً (صوفيًّا) ولكن (الصوفى) لا محالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة بين زهد الصوفى وعبادته ، وبين زهد غير الصوفى وعبادته . وهذه التفرقة إنما هى فى الهدف أكثر منها فى الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفى ، إنما هدفه الاستمتاع فى الآخرة ، فهو نوع من المعاملة ، كأنه يشترى متاع الدنيا بمتاع الآخرة .

أما الصوفى فإنه يزهد فى الدنيا لأنه يتنزه عن أن يشغله شىء عن الله .

وعبادة غير الصوفى هدفها دخوله الجنة ، كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة ، هى الأجر والثواب ، فمثله كمثل الأجير يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره فى المساء .

أما عبادة الصوفى فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله لأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة ، وتقول السيدة رابعة رضوان الله عليها ، ما معناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفًا من نارك فألقنى فيها ، وإن كنت أعبدك طمعًا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم ، فلا تحرمنى من رؤيته » .

هذه المعانى الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله - إنما هى معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدهية فى محيطهم وفى جوهم : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » .

والتصوف إذن : ليس خُلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ولا عبادة لا غير ، وإنما هو يتضمن الخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة وبرغم كل ذلك فإنه شىء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شىء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً بل يعتبرونها من الأشياء اليسيرة التى تبعث

السرور فى قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى تدل على أنه لم يبلغ بعد التصوف قدماً ثابتة ولا درجات ممتازة .

ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التى تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقى لهذا الموضوع :

١ – أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوفى فقال : « من صفى ربه قلبه ، فامتلأ قلبه نوراً ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » .

٢ – الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف هو : أن يميتك الحق عنك ويحييك به .

٣ – أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف صفاء ومشاهدة .

٤ – جعفر الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف طرح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل الشبلى عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده .

وإذا نظرنا إلى تعريف الكتانى ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين ، هما اللذان – فيما نرى – يكوّنان – فى وحدة متكاملة – تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثانى : « غاية » .

أما الوسيلة : فهى « الصفاء » .

وأما الغاية : فهى « المشاهدة » . والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية ، طريق يتضمن نواحى كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التى كانت السبب فى هذه التسمية ، واتخاذها عنواناً على هذه الطائفة .

لقد قال جماعة : إنما سميت « صوفية » لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . وقال : بشير بن الحارث : الصوفى : من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفى : من صفت لله معاملته ، وصفت له من الله عز وجل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة (الصوفية) إنما تشير إلى الصفاء وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة ، ومادامت « إشارة » فإنه من التعسف أن يجادل إنسان فى أمر انسجامها مع اللغة وعدم انسجامها .

ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف ، أى إلى الصف الأول فى العمل على الوصول إلى الله والجهاد فى سبيله .

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فإنها تشير إلى أوصافهم من العبادة والتهجد ، وعدم الطمع فى الدنيا واستعدادهم الدائم للجهاد فى سبيل الله ، وتشير الكلمة للصفة : أى الصفة الكريمة التى لا يتعلق فيها القلب بالمادة ، وإنما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .

على أن هذه الوسائل التى تشير إليها الكلمة لها وسائل أخرى ، هذه الوسائل الأخرى منها ما يعبرون عنه بقولهم : (لا يَمْلِكْ ولا يُمْلَكْ) ، ويعنون بذلك أنه « لا يسترقه الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الجاه من الانغماس فى الملذات من الجرى وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف من الصفات التى تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف فى هذه الوسائل : أنها تؤدى إلى الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله عليه بها إن شاء .

هذه المشاهدة هى أسمى درجات المعرفة ، وهى الغاية النهائية التى يسعى وراءها ذو الشعور المرهف والفطر الملائكية والشخصيات الربانية .

فالتصوف إذن معرفة – أسمى درجات المعرفة بعد النبوة – إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام الغزالى فى تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول فى كتابه الخالد : إحياء علوم الدين .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة » .

ومن القصص اللطيفة التى تصور الوسيلة إلى المشاهدة فى سهولة ويسر القصة التالية :

قال ذو النون :

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام .

فقلت لها : من أين أقبلتِ رحمك الله ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . قلت : وأين تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . قلت : صفيهم لى : فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله علقت ... فما لهم هم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل فى بلد
إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

والمشاهدة التى هى الغاية (الصوفية) هى أيضاً تحقيق واقعى للتعبير .

الذى تنطق به فى كل آونة حينما تقول : (أشهد أن لا إله إلا الله) . فالشهادة هى غاية الصوفى ، وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ، ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولا أو ما يقوله حروفاً .

وما من شك فى أن تعاريف التصوف الكثيرة التى نجدها منثورة هنا وهناك ، والتى تكاد تبلغ الألف ، إنما فى أغلب الأحايين تعبر عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها - إذا ما كانت كذلك - إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو فى أخذها على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة ، أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف الكتانى : (التصوف : صفاء ومشاهدة) .

فى مصادر التصوف الإسلامى

يحاول المستشرقون وغيرهم من الذين يكتبون فى التصوف الإسلامى رد الحياة الروحية الصوفية فى الإسلام إلى مصدر أجنبى بحت ، هندى أو يونانى . . إلخ . أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال . فيرى أن العامل الأول فى نشأة التصوف إنما كان القرآن وحياة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية – هندية أو يونانية أو فارسية ، أو مسيحية – هى التى أثرت فيه وجعلته يتطور وهى التى أمدته من الآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته .

وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول فى صراحة : « وأما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة » . فإن المستشرقين ، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامى أو لا يشترك . والتصوف إذن على رأى بعضهم : « مذهب دخيل فى الإسلام » مأخوذ إما من رهبانية الشام وهو رأى « ميركس » وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود وهو رأى جونس .

ويأخذ المستشرقون فى مناقشة بعضهم البعض ، وهدم بعضهم البعض ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلا يذهب فى أول حياته إلى أن التصوف الإسلامى إنما هو مأخوذ عن أصل مجوسى .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن التصوف ، وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة ، يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ وسيرته .

ويقول الأستاذ الدكتور/أبو العلا عفيفى – بحق – ولما بدأت حركة طبع الكتب فى مصر ، والهند وغيرهما ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمى لا فى التصوف وحده ، بل فى جميع فروع الدراسات الإسلامية .

وتغير إذن رأى « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته وأسانيده ، وكما اعتبر فى فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسى للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر فى فترة حياته

الثانية أن أدلته وأسانيده فى المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه وجد فى فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث لثولك هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكلسون » أنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأهم هذه العوامل وأبرزها فى نظره ، هو الأفلاطونية الحديثة المتأخرة ، والتى كانت شائعة فى مصر والشام إلى عهد ذى النون المصرى ، ومعروف الكرخى .

وإذا أردنا تصوير رأى نيكلسون بقلمه فى هذه الفترة فإننا نراه يقول : « ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندى ، أو فارسى ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليونانى ، والديانات الشرقية ، أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . والديانة المسيحية والمذهب الغنوصى » . ثم يتحول نيكلسون عن هذا الرأى ، حينما يكتب مادة التصوف فى دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامى ، حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التى استعادت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التى تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية – يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً دقيقاً بإرجاعها إلى أصل واحد كالفيدانتا الهندية ، أو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة – أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة ، لا الحقيقة كلها .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول :

« وقد بين نيكلسون أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وقراءتهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويتابع الأستاذ ماسينيون شرح فكرة نيكلسون ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ، ونمت فى كنفه » .

وفكرة نيكلسون هذه : هى تقريباً فكرة نفس الأستاذ ماسينيون فماسينيون يرى أن التصوف

لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولا إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التى استمد منها التصوف نشأته وحياته .

كما يرجع إلى المصدر الثانى وهو الحديث ، والفقه ، وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير ، فهو الثقافة العلمية الأجنبية العامة التى وجدت فى البيئة الإسلامية فى عهودها الأولى .

هذه الاختلافات الكثيرة التى استفاض فيها الكاتبون وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتى لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهى ، ولا تريد أن تنتهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه ، وهذا الخطأ فى وضع المشكلة مفهوم السبب والعلة .

لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية . والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب أو الشاعر أو المفكر على وجه العموم ، الذى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وربما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه إذن هو أثر البيئة الخارجية ، اللهم إلاّ إذا كانت له أصالته التى تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذى يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى ، وإذا أردنا أن نتحدث فى تحديد ودقة ، فإنا نرى أن المشكلة التى نحن بصددها تتفرع إلى أمرين :

١ – الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢ – الشعور الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحتة وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ، لابد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجوداً مهيئاً ، ويكفى لأن يسلك عملياً هذا الطريق كلمة أوفكرة ، أو إشارة أوحادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلا فى سيره نحو الله تعالى : إنى ذاهب إلى ربى .

هذا العزم المصمم ، الذى يتمثل فى هذه الكلمة الكريمة ، لابد له من الاستعداد الفطرى ، الذى لا يغنى عنه فلسفة أفلاطونية ، ولا فيدانتا هندية ، ولا زرادشتية فارسية ، وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً للأفلاطونية الحديثة أولايكون ، وقد يكون على علم . بعقائد الهند ، أو لا يكون ، فالتخصص فى الأفلاطونية الحديثة لا يفيده تخصصه هذا ، ولا قلامة ظفر ، فى أن

يكون صوفيًا ، وكذلك الأمر فى المتخصص فى عقائد الهند . وقد قرأ الإمام الغزالى كتب الصوفية أنفسهم ، ويحدثنا بذلك فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى – قدس الله أرواحهم – وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيًا ، ولم يكن الإمام الغزالى بهذه الكتب ولا بمطالعته لفلسفة اليونان ودراسته العميقة صوفيًا ، ولكنه تبين أن أخص خواصهم – على حد تعبيره – ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة والاشتياق بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وهذا هو جوهر الشعور الصوفى .

أخص خصائص التصوف شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه ، والذى لابسته تلك الحالة – على حد تعبير الإمام الغزالى – لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

المشاهد الصوفية إذن ليست ثقافة كسبية ولا يتأتى الحدث عن مصادرها الخارجية – أيًا كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة – مسألة مصادر التصوف – إذن موضع البحث والنظر . والدراسة إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به. إلاّ من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم فى تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التى نريد أن ننتهى إليها إذن هى أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفى ، والشعور الصوفى ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد من مصدر النور والهداية .

فى نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ مع نشأة الإنسان ، والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ، لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل . ولكنه من البديهى أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم ، ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ، إنها تعترف بصلته بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها ، والنبوة أعلى درجة من التصوف ، إنها تتضمنه ، وتزيد عليه أن النبوة تتضمن الولاية ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

(إن الله اصطفى آدم ونوحاً) .

والأديان – على وجه العموم – لا تنتهج نهج التطور بين النشوئيين الذين يرون أن العقل الإنسانى درجات مختلفة ، وأن تطلعه للمعرفة الإشراقية إنما نشأ متأخراً أى عندما نضج وتهذب . والحق أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات تتابعت رقيًّا ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل – باعتباره عقلا لا باعتباره معرفة – مكتسبة – هو ، هو ، فى بنى البشر باديهم ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلا من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته فى أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ، لنشأ نشأة أوربية بحتة .

وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلا من أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنسانى : هو ، هو منذ أن وُجدت الإنسانية إلى الآن ، والذى اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، هى وحدها التى تميز المتحضر عن البدائى ، والتى تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

ومما هو جدير بالذكر أن التصوف – فى وجوده وتحققه – غير محتاج إلى معارف مكتسبة طبيعية أوكيمياوية أوفلكية ، أو غير ذلك ، إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله . ونفخ فيه من روحه .

هذه النفخة الإلهية ، أو هذا السر الإلهى فى الإنسان ، أو هذه الروح التى بين جنبيه ، أو هذا القلب الذى منحه الله إيّاه ، إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد فى طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التى تؤدى إلى الاتصال بالملأ الأعلى فإنه ينتهى – بتوفيق الله – إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعنى المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذى يراود الكثير من النفوس التى تريد أن تتنزه عن المادة ، وأن تسمو على الحس ، وأن تصبح ربانية .

وهذا النمط من الناس موجود فى كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعى أنه من الندرة بمكان « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه إلاّ الواحد بعد الواحد » على حد تعبير ابن سينا .

ومن المعقول أن هذا النمط وُجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب فطرة فى بعض الطبائع .

وجد التصوف إذن منذ أن وُجد الإنسان ، وفيما قبل الحضارة اليونانية كانت المسائل – فيما يتعلق بالمعرفة – تسير سيراً طبيعيًّا ، فقد كان هناك ميدان للحس يجول فيه كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل يبحث فيه كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف فى الحكمة الهندية مثلا ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط فى تلك الحضارات أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملا ، لا لبس فيه ولا غموض ، كانت محددة فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة فيما يتعلق بالموضوعات .

وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرتهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله ، بل حدث فى بعض الأحيان أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هى الطبقة التى يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها .

وطبقة البراهمة عن الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولا تزال هذه الفكرة للآن – فكرة تحديد ميادين المعرفة وتحديد وسائلها – موجودة فى الهنود المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول

نوعاً ما بين ميادين المعرفة ، وبدأت بالتالى ، تضطرب الأمور فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارات اليونانية القديمة نفسها – فى بعض صورها – كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة . هندية كانت أو مصرية .

فهذا مثلا « فيثاغورث ومدرسته » كانوا يسيرون فى المعرفة على أسس صحيحة .

ولكن وجد بجوار فيثاغورث من انتهجوا النهج العقلى فى معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط حتى كان أرسطو ، فذهب بهذا الخلط إلى أقصى مداه واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعانى الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل فى مسائل ما وراء الطبيعة انحراف يؤرخ بالعصر اليونانى ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفياً فى العصر اليونانى ، وفيما تلاه من العصور على كثير من ذوى البصائر النافذة الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمة والذين اتخذوها دثاراً وشعاراً .

والذين عملوا بها وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . . فقادتهم إلى أن يكونوا ربانيين ، لقد قادتهم إلى الأمل المنشود شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد فانضووا تحت لواء الآية الكريمة :

(شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة وأولو العلم) .

إنهم أولياء الله ، إنهم الصوفية . .

فى التصوف والدين الإسلامى

هل للتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته روحية : رضا الملأ الأعلى وحب الله والاتصال به والفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها أو إلى بعضها الصوفى .

لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال .

إذن التصوف : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضحناها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله لا يتأتى إلا عن طريق الوحى المعصوم ، فلابد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً .

وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف أبداً ما لم يكن هناك اتباع كامل لشريعة صادقة ، وأن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداءً تامًّا برسول الله ﷺ ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخرة وذكر الله كثيراً) .

ويمكننا أن نقول فى صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف إلاّ فى المحيط الإسلامى ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا فى النصوص الإسلامية ، إن القرآن الكريم كلام الله ، وهو الآن كما كان أيام رسول الله ﷺ ، وقد عرف ذلك بعض الغربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام مستمسكين بوحيه ، سائرين على نسق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره ، مجتنبين نواهيه . وساروا فى الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم يتطلق من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق فإنه لا يصل إلى شىء من درجات الصوفية ، إن الصوفية لا تتأتى إلاّ بالاقتداء والقدوة المعروفة الآن سيرتها فى صدق ويقين هو رسول الله محمد ﷺ ، إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله فى صدق ، لقد تناقش الناس كثيراً إلاّ فى كون محمد ﷺ هو القدوة لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو أو إلى الكمال الروحى ، ليكون عارفاً بالله . وليس من عناصره فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول ، بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم ، وما اتهامات أعدائهم إلاّ اتهامات أعداء .

هذا هو المحاسبى « الذى لا يشك فى أنه من زعماء الصوفية ليست عنده فكرة الاتحاد أو الحلول أو ما شاكل ذلك من حالات السكر التى يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم ، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير فيرون فى النهاية أنه :

(فأينما تولّوا فثم وجه الله) .

و (إن الله معنا) .

وإذا كان الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسى – كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبى ، أو الغزالى ، أو رابعة العدوية ، أو كثير غيرهم – ليس إلا الجهاد لرضاء الله ، وتزكية النفس حتى تعرف الله به . إذا كان الأمر

كذلك فإننا – نعتقد – ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين – أن محمداً ﷺ كان أول قدوة لصوفية الإسلام .

بقى الحديث عن التصوف فى القرآن ، وقد كثر الكلام فيه أيضاً ، ومحط النزاع هو أن القرآن كتاب دنيا وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول فى صراحة وإيجاز : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

أما التصوف فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير .

والحقيقة أن كلا الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن كتاب دين ودنيا ، ولكنه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ، والصوفى : ليس رجل آخرة فقط لأنه يصارع فى الحياة صاعداً بها نحو الكمال .

أجل إن القرآن يدعو إلى ألاّ ننسى نصيبنا من الدنيا ، وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية . كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة فى نظر القرآن خير وأبقى وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر ، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن ، هم الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، إلى آخر ما فى القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم هى حقًّا الحياة الدنيا ، وأن الآخرة خير وأبقى ، والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة ، وهو جهاد فى سبيل الله ، وقد رفع الصوفية رايته خفاقة فى كل العصور .

أما أن الصوفى رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، أو على الأقل عدم التحديد ، فهذا الصوفى يتزوج ، ويدعو هو الآخر إلى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب خير من أن يتكفف الإنسان الناس أعطوه أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن .

(وللآخرة خير لك من الأولى) .

فمعنى إيثاره للآخرة إذن إنما هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك فى أنّ القرآن الكريم والرسول ﷺ يطويان جميع المسائل ، ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصبغة الله ، يريد أن يكون كل عمل إنما

يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون الأعمال بهذا عبادة . وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهيًّا يتخلق بأخلاق الله .

فى قضية التصوف

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب ، بل إن النزاع بين الفقهاء و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا حرباً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً للآراء ويرون أنه وحده الهادى إلى الرشاد .

ولم يهدأ الصراع قط بين « الصوفية » وغيرهم – فقهاء كانوا أو عقليين – على مر الزمن .

فما هى مآخذهم على « التصوف » ؟

أولا : يرى « الفقهاء » ويشاركهم فى هذا الرأى كثير من الباحثين أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته ، وإرادته ، موجودة فى القرآن الكريم ، فى وضوح لا لبس فيه ، فإذا ما تركناه وذهبنا نلتمسها فى متاهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل فى مجاهل الطريق .

ثالثاً : التصوف ليس فى متناول الجميع ، فهو إذن أرستقراطية تتنافى مع روح الإسلام الديمقراطية .

ولأن « التصوف » ليس فى متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله – سبحانه وتعالى – منحنا العقل لنهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه ، كما يفعل الصوفية فقد احتقرنا أجلّ نعمة لله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين فى محيط ما وراء

الطبيعة وهم يبرهنون على وجود الله عقليًّا ، ويرون فى براهينهم غناء ودقة ، ويقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله فى القرآن الكريم على استعمال العقل ، والآيات التى تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هى أهم ما يأخذه منكرو التصوف على التصوف و « الصوفية » وأما ما عداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التى يلصقونها بـ « التصوف » . وليست منه ، فإنا نضرب عنها صفحاً ، وذلك أننا نتحدث عن (التصوف) الحقيقى والصوفية الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع :

ونريد الآن أن نبين – فى إيجاز – بعض ما يراه « الصوفية » فى هذه الاعتراضات ، لنتبين الحق فى هذا الغموض والاضطراب والخلط الذى يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج – فى نظر الصوفية – إلى كد الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة فى نظر الصوفى ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله ، إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هى انتقاص من جلاله سبحانه ، فمتى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل على وجوده؟ إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية – شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة – لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب فى إلحاح وفى قلق ، وفى تحمس جارف ما وراء إثبات وجود الله ، النفس الإنسانية هكذا خلقت ، فكما منح الله الإنسان عقلا كبيراً ، وذكاء حاداً ، ونفساً متطلعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل فى البحث فيما وراء الطبيعة .

قالوا : إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، كل هذه مسائل هينة . لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة ، ولما كان علم الكلام ، ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة . ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ، ولن يتأتى لها – عن رغبة أو رهبة – أن تقتصر على ذلك .

المشاكل التى يُراد حلها :

كيف خلق الله العالم ؟ أخلقه من العدم المطلق ؟ فكيف إذن ينتج شيئاً من لا شيء ؟ إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته ، أم خلقه من مادة كانت موجودة ؟ فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان الله ، والمادة .

والله لا نهائى الذات ، ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو كل شيء فى كل شيء ، وبهذه النظرة يخاطب « شلى » الله سبحانه وتعالى — فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعبها النسيم ليست بضعة منك (جزءاً من أجزائك) كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية » ويقول : « إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان بها يحيى كل موجود وهى هو »[1] .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماء ، ولا برًّا ، ولا بحراً ، فهى إذن محدودة ، لأنها ما عدا هذا الكون .

ثم إن الله — زيادة على ذلك — لا يمكن أن يوجد فى كل مكان والله عالم . أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما يكون وبما هو كائن على أنه سيكون ؟ أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟ أيسيطر الزمن على علم الله ؟ أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه فى حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقًّا أن نفهم أن الله فى حاضر لا يزول مع بداهة شعورنا بالماضى والحاضر والمستقبل .

والله عالم : كما قلنا ، أهو عالم بذاته فحسب لأنّ علمه فى شرفه وسموه وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته سبحانه وتعالى ؟

أم أن علم الله يتعلق بذاته وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات والجزئيات على الرغم مما فى الجزئيات من نقص وتفاهة ؟ ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر ؟ والله قادر : أهو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على

---

(١) عن مبادئ الفلسفة ، ترجمة الدكتور أحمد أمين .

الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل – كما يقول علماء الكلام معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال .

والله مريد :

أيريد الخير والشر ؟ فلِمَ الحساب والعقاب أو المثوبة إذن ؟ وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر فى هذا العالم رغماً عنه ؟ أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟

أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟

إن رضاءه بالشر يتنافى من كماله ، وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟ أيحب الله أن يُعصى ؟ أم أنه يُعصى رغماً عنه ؟ وصفات الله عامة ، مطلقة شاملة لا نهائية ، إنه رحمن رحمة مطلقة لا نهائية ، ورحمته وسعت كل شىء وهو جبار ذو جبروت لا نهائى ولطيف لا حد للطفه .

فكيف تنسجم للرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق مع أن البداهة تقضى بأن تنفى كل صفة منهما وجود الأخرى . وإنه لمن الرائع حقًّا : أن نرى ما يريد أن يراه الشاعر إسماعيل صبرى حينما خاطب الله قائلا :

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار

أيمكننا أن نرى حقًّا غضب اللطيف الذى لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذى لا نهاية لجبروته .

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ إن صفاته كلها مطلقة شاملة فهل إسماعيل صبرى محق إذن حينما يقول :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك فى ، السموات العلا والأرض شبراً خالياً للنار

وكيف يلقى الله بالمعرفة إلى رسله ؟ بأى لغة يخاطبهم ؟ وكيف ينزل الملك على رسول الله فيراه ويسمعه فى حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه .

ومن أين يأتى « المَلك » أمن السماء ؟ ولمَ ؟ مع أن الله فى كل مكان . إن مشكلة الوحى ، هى الأخرى ، من المشاكل التى استنفدت الكثير من المداد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياة أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ونلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه فى حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة ومن طاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟ أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح ائتلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة فى دقة دقيقة وفى تحديد محدد . والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسى وروحانى ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحانى بحت .

وما هدف الله فى إيجاد هذا العالم أخلقه ليعبده (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، أم خلقه ليعرف كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق فبى عرفونى ؟ » .

إن كمال الله غنى عن أن يكون فى حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطاً (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

والحكمة : إنما هى تعبير عن الغرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لِمَ أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التى أثارت العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، وبعدها من المتشابه . قال رحمه الله فى رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم ، أو فى الجنس كالقدرة والاختيار ، والسمع والبصر .

وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها فى الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين . ثم أفاض فى الفضاء السابق ، وفى الاختيار الممنوح للإنسان وجادل الغالبين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم أخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداعاً ، وإنما هى موجودة تصادفك فى الفلسفة ، وتصادفك فى علم الكلام ، وهى موجودة قديماً حديثاً ، وهى بعض من كل : كيف تصل حقيقة إلى الإجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحواس والملاحظة والتجربة والعلم الحديث وما فيه من طبيعة وكيمياء أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقًّا عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى .

وعقل من ؟ أعقلى أنا ، أنحتكم إلى عقلى وهو — فيما أرى — ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً يهوى ، أو بعصبية أيرضى بعقلى حكماً ؟ أم نحتكم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟

وسيحلها دون أن يكون مسيراً يهوى ، أو بعصبية . ولكن إمام « الشيعة » بحسب نظرهم — معصوم ، وهم يلجئون إليه فيما ادلهم من الأمور ، ولن يرضوا بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة أنستلهمهم الرشد فى هذه المسائل .

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، إنه على الأقل — فيما يرون — معصوم فى الأمور الدينية ، ورأيه هو الفيصل فى كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضى آراؤه البوذيين أو المسلمين أو اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أو من اختصاص أصحاب العمائم ؟ أحلُّها محصور فى السوربون أم هو من اختصاص الأزهر ؟ إن هذه المسائل شغلت الرءوس على اختلاف أنواعها ، من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمائم ، إلى لابسى

القبعات السوداء ، إلى أرباب الضفائر إلى ألوف تصببت عرقاً من البحث[١٠] إلى أى هؤلاء نلجأ فى حلها ؟ لقد :

تحيرت البدو ماذا تكون وضلت بوادى الظنون الحضر

وقد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » ؟

وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أو إلى عقل « ديكارت » ؟

هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسى ؟ أو إلى عقل « فيلسوف مثالى » . أو نلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ أللنظام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك « وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل نتبعه ؟

أو نتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ أنتبع « الشيخ محمد عبده » أم الشيخ (عليش) إن كلاً منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان فى شىء من آرائهما سواء فى ذلك الوسائل والأهداف فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول : « إن العقل الإنسانى مركب تركيباً يؤسف له ، فإنه مع شغفه ، بالبحث فى مسائل لا تدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف عن معمياتها » .

أما الإمام « الرازى » فإنه يقول فى عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلامه الحكيم ، ولقد تأملت الطرق « الكلامية ، والمناهج الفلسفية » فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ويقول فى وصيته التى أملاها على تلميذه إبراهيم بن أبى بكر الأصفهانى : « ولقد اختبرت الطرق الكلامية « والمناهج الفلسفية » فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن الكريم .

والإمام الرازى هذا ، وهو الذى يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » فاق أهل زمانه فى علم « الكلام » والمعقولات ، وعلم الأوائل .

---

(١٠) من مبادئ الفلسفة . ترجمة الدكتور أحمد أمين .

وليس «كانت» وليس الرازى إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى فى النهاية مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فنرجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :

يارب أهلنى لفضلك . واكفنى شطط العقول ، وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس الدينى المرهف وتؤرق أعينهم وتشغلهم – مصبحين ممسين ، ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن قال : بلى : ولكن ليطمئن قلبى) .

فما هى الوسيلة التى يروون عن طريقها غلتهم ، وتشفى صدورهم وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده ، عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين أن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب يحارب بعضه بعضاً ، بل يكفِّر رجاله بعضهم بعضاً . إلام نتجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله معترفين بفضله فى ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه فى ما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه فى غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد ، وإذا ماتوجهنا إلى القرآن نسترشده فيما ادلهمّ وخفى ، فماذا نجد ؟ نجد أن القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يرشد فى مواطن عدة إلى نوع من المعرفة ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صوره وأعمها وأشملها هو الرؤيا ، فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى:(إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) .

ويعتقد والده فى رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة:(يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) .

وحينما سجن العزيز يوسف:(ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه) وذهبا إلى يوسف واستنبآه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين:(نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى ، ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك:(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى فيرى أن نفس « الملك » تكشف لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه فى صورة رمزية ويعبر « يوسف » الرمز قال : (تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً ، ذكّر « يوسف » أباه برؤياه السابقة وقال : (يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقًّا) .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو الرؤيا فى النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما فى صورة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًّا عليه ، كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب ، لأنكر وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[١] .

والنبوة هى الأخرى ، ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، ليست استقراء ناقصاً أو تامًّا ، وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله .

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية ، إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعنى الملائكة والقرآن يحدثنا أيضاً فى

---

(١) الغزالى فى المنقذ من الضلال .

أسلوب قصصى شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا موسى فى البحث عنه جهده حتى وجده وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته فقال له العبد الصالح ، إنك لن تستطيع معى صبرًا . وألح موسى .

وقبل العبد الصالح – فى النهاية – على شروط اشترطها ولم يكن فيها رفيقاً « بموسى » أو عطوفاً عليه .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لاتنسجم مع العاطفة ولا مع المنطق ولا مع القانون .

ولم يكن موسى يحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شىء ، ولم يجد موسى إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح وقد أخل موسى بالشرط – مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة (هذا فراق بينى وبينك) والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق .

(وإذ قال موسى لفتاه ، لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُباً ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ، قال : ذلك ماكنا نبغِ فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى ، هل أتبعك على أن تعلّمنى مما عُلِّمْتَ رُشداً . قال : إنك لن تستطيع معى صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبْراً . قال : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً .قال : فإن اتبعتنى فلا تسألن عن شىء حتى أحدِث لك منه ذكراً .فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً ، قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً؟ قال : لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكراً ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال : لو شئت لتَّخذت عليه أجراً .قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنَين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كَنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً[1]) .

هناك إذاً طريق للمعرفة غير الحس وغير العقل . ما السبيل إليه ؟

فى الطريق إلى المعرفة

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى فتفيض عليها نفحات وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق الصواب :

ولكنّ الكثيرين يشكون فى هذا الطريق – طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر – الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون فى إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة والرسالة والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة .

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين قاله فى ساحة السربون لأساتذة الجامعة وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم فى « ما وراء الطبيعة » .

سيتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟ إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

---

(١) سورة الكهف ٦٠ – ٨٢ .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان .

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده إنه لمن الغريب حقًا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكاً إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه – فى قليل أو كثير – ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة نفسها » إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة

وهذا الرأى نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين فى كل عصر .

إنه رأى الفارابى ، ورأى ابن سينا ، ورأى الشيخ محمد عبده . .

يقول الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الإنس بما يقارب تلك الحال ، حال الاتصال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال : لا تنكرها عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما حدث به الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف » .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة .

« ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غرروا بهم ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول ، وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون حالهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »[1] .

---

(١) رسالة الشيخ محمد عبده فى التوحيد ط صبيح ص ٦٩ ، ٧٠ .

التصوف أرستقراطية :

مما سبق نتبين أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة له ميدانه . وأن العقل وسيلة إلى المعرفة له ميدانه هو أيضاً .

والبصيرة التى سبيلها تزكية النفس – وسيلة إلى المعرفة لها ميدانها ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة و « الصوفية » أقل الناس تأثراً بالعواطف على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه فى الله وهو المقصود بـ « الذكر » وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصًا لا يمكن سلوكه إلاّ لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التى يجب توافرها فى السالك ، علمنا النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم التصوف قائلين :

« التصوف » إذن : أرستقراطية .

وهذا اعتراض لا قيمة له فالتصوف حقًّا (أرستقراطية) . وطبيعة الأمور تأبى ألا يكون « أرستقراطية » إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من نور .

الديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى فى كل شىء فهى أسطورة من الأساطير ، فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من الأحوال ، إنه لا يوجد بين الحيوانات فى الغالب ولا يوجد بين بنى آدم فى المدن أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ولا فى قوتهم الجسمانية ، ولا فى ذكائهم ولا فى دهائهم ومكرهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم ، ونظام « الطبقات » الذى يسود فى (الهند) والذى ننتقده ونشنع عليه إنما هو النظام الواقع فعلا فى جميع أقطار الأرض .

والروس الذين بلغت الديمقراطية عندهم حد الفوضى فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد

بذكائه وقوته ، والمسود بغبائه وضعفه و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » : وهو فيلسوف نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف ، ففى جمهوريته طائفة الإنتاج ، وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرهة والشهوة الغلابة ، وطائفة الجند ذات العاطفة القوية .

وطائفة القادة معدن العقل والحكمة ، والبصيرة والإشراق .

التصوف نهج الخاصة :

التصوف « أرستقراطية » وهو فى ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص الذى يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم ، ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة التصوف يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة أن ينهجوا نهج السادة المختارين معدن الصفاء والحكمة .

« الناس معادن » على حد تعبير الرسول ﷺ ، ومعادنهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبى ، وفيهم المعدن الفضى ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول فى رسالة التوحيد « مما شهدت به البديهة » أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفِطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى ما لا يحصره العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً ، فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاهد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه تورثهم بادئ الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أنّ منهم الأنبياء ومنهم الصديقين ومنهم الشهداء . . إلخ .

قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً) .

لا يدعو (الصوفية) إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين و (جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد) .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة بيد أن « الصوفية » إذا كانوا لايدعون الناس جميعاً إلى (التصوف) فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة ، يجعل الناس إخواناً متعاونين متكاتفين .

تفاوت الناس فى فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، ولا يتيسر لكل إنسان ، فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند (الصوفية) إن (الصوفية) لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة الإنتاج ناجية .

ونحن جميعاً نعلم أن التحقيق الإسلامى ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس . إن إيمان (أبى بكر) رضوان الله عليه ، ليس كإيمان غيره ، والرسول ﷺ ، يمثل تفاوت الطبائع فى الاسترشاد فيقول : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا ووزعوا .

وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة عندهم فى سبيل الله ، يبذلونها عن رضاً لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع إفريقيا وأقطارها التى لم تفتحها الجيوش الإسلامية .

وقد كان لهم الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى (أندونيسيا) وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية ، مكرساً حياته لصد غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول ابن سينا عن الصوفى (العارف شجاع) وكيف لا وهو يعزل عن تقية الموت .

(التصوف) روحانية ، والروحانية قوة ، لا يتمارى فى ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام فيكفينا فى الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء :

أولها : للشيخ عبد الواحد يحيى « وهو فيلسوف مسلم صوفى » .

والثانى : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » الذى يعتبر أعظم باحث فى التصوف بين المستشرقين فى العصر الحاضر .

والثالث : لصاحب كتاب « التبصير فى الدين » وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

ومؤلفه هو « الإمام الكامل الفقيه الأصولى المفسر الإسفراينى » ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن التصوف يكون جزءاً جوهريًا من الدين الإسلامى ، إذ إن الدين يكون ناقصًا بدونه ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى « يونانى » أو « هندى » أو « فارسى » وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض (الاستعارة) ذلك بأنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويقول الأستاذ (مسينيون) وقد بين (نيكلسون) أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها « متصوفة » المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث ، وتقرئتهما

وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به أهل « السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

علم (التصوف) والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمى أنه لم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » و « الروافض » و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم على التعليم والتفويض والتبرىء من النفس والتوحيد والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

التصوف والعصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان » فى القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس – شرقيين وغربيين – منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث معتقدين أنه سيحل كل مشكلة فى الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذى غيّر اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يفسر لنا بأسلوبه الرصين .

ما الذى غير اتجاه العقل الإنسانى فى القرن التاسع عشر؟ الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً فى دعواه ، يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

ولا نريد أن نقول : إن العلم أخفق فى تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره كلا ، بل نريد أكثر من ذلك ، نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة فى الأثير ، وما الأثير ؟ شىء كلا شىء ، وليست له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا فى هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس ، وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر .

كلا – أيضاً – لأن الفكر محدود ككل شىء فى الإنسان ، فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى من وسائل الحس ووسائل التفكير .

لابد لها من البصيرة أو من البديهة أو من الإلهام ، وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين ، فهذه هى المعرفة التى يتعاون عليها الحس ، والفكر والإلهام . اهـ .

أما بعد/ فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من نزاع ، وإنى لعلى يقين من أن نظرة الإنصاف ستزيل ما فى نفوس خصومهم من حدة فيتلاقى الجميع – فى رحاب المودة التى يدعو إليها الصوفية – إخواناً فى الله متحابين .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

فى كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم فى الميدان الدينى وفى الميدان السياسى وفى الميدان العلمى ، ونجدهم كذلك فى ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق ، وكما لا يضر الدين ولا يضر العلم أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون . فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة وسمات معينة وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين فكذلك الأمر فى الجانب الصوفى .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التى لم تتعمق فى الجانب الدينى عموماً ، ولا فى الجانب الصوفى خصوصاً .

هذه البدعة ترى أن الشخص الذى وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون ، ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت فى العصر الحاضر ، بين رجال درسوا القانون والتشريع يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التى وصلتهم فسترى عجباً عجاباً ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التى يستحضرونها فتلبس – فيما يزعمون – جسم الوسيط وتتقمصه وتكشف لهم عن الغيب من أزلة إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته ومن مشرقه إلى مغربه .

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح فى وسطهم يتحدثون عنها مصبحين وممسين حتى لقد أصبحت دينهم الذى لا يدينون بغيره ولا يتلقون الوحى عن سواه وأصبحت كلمة الأرواح عندهم تحل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ومن أساطين العارفين ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم فى فترة من الفترات أنه من كبار الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ثم كان فيما بعد محمداً ﷺ ثم تخلص من البشرية جملة فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه والأرواح التى يستحضرها تؤيده فى كل ما يزعم ، ولا ترى هذه الأرواح – كما لا يرى هو – فى ذاك شذوذاً ولا تناقضاً وصدق الله تعالى إذ يقول فيه وفى أمثاله ممن يتصلون بالجن وينحرفون عن سواء السبيل :

(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) .

ولعلك تتساءل هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟ وجواب رجال التصوف فى ذلك حاسم قاطع ، ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة لأنها تَعَاملٌ مع الجن والشياطين ويتذكرون فى هذه المناسبات قول الله تعالى :

(هل أنبئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين ، تَنَزَّلُ على كل أفّاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

وقوله تعالى : (ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف والضلال والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه وليس من همنا أن نبين نشأتها التاريخية فى العرب بين الأوساط اليهودية التى روجت لها وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة « تحضير الأرواح » .

إن عرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة إسقاط التكاليف الشرعية وهى مسألة لم يبتدعها من يزعمون التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل ، فى كل مشكلة من المشكلات ، إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم أثنان نجدهم سواء فى ذلك – القدماء منهم والمحدثين – ينكرون الفكرة إنكاراً تامًّا ، ويرونها زيفاً وضلالا وانسلاخاً عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى هذا الموضوع ثم نفصل نوعاً ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى وهو ،زعيم علم من زعماء الصوفية فى العصر الحديث .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل ، المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه » .

ومن كلام أبى يزيد :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

ويقول سهل التسترى معبراً : عن أصول التصوف « وأصول طريقنا سبعة » التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق ، ويقول الجنيد – سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى – :

« ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال : « علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » . وقال : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالى فإننا نجده يقول فى شىء من التفصيل فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ،ونحن نعرفك علامة له، وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلاّ من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض » .

فإن قلت فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟ وأقول لك : اعلم أن ذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا : « لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان . . وهو الحق » .

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه إننا نجده يقول : « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة .

والصوفية يتبعون فى كل هذا النصوص القرآنية والسنة النبوية القولية والعملية للرسول ﷺ . وهم يعلمون – لا شك – البديهات التاريخية من أن الرسول ﷺ كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء وخير ما نختتمه به إنما هو الحديث النبوى الكريم : سئل النبى ﷺ : عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله فقال : « كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى[١]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا فى الغرب الحديث .

ولا شك فى أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى فليس ذلك جوهر بحثنا هذا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أويهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ولو من جانبها العملى ، ذلك أن الأكثر وهو التصوف يتضمن الضرورة الأقل وهو الشريعة .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى إلى الشريعة من حيث عدم أهميتها وعلى الخصوص أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له . . هذه النظرة تتضمن ولو نظرياً تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه ، وفى هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً أن يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة الاستعداد الصوفى ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه بالنسبة للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعى أن يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ،

---

(١) الشيخ عبد الواحد يحيى من كبار المفكرين العالميين . نشأ فى فرنسا كاثوليكياً . وانتهى به البحث إلى اعتناق الإسلام والأخذ بالتصوف ، ومارس التصوف نظرياً وعملياً ، حتى ليعد من أكبر الحكماء فى العصر الحديث . وقد توفى بالقاهرة منذ سنوات ، وترجمت كتبه إلى اللغات الحية . وأثره فى الغرب كبير إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات فى أوربا كونت باسمه لتتابع أثره وتحدو حدوه .

وهو فى هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظره فحسب .

وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم أعنى التزام الشريعة . قلنا إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا .إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق .

ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشىء واحد أحدهما خارجى والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد فى الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفى وهى مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية مجرد خداع ؛ ومن البديهى أن هذه الجماعات من وجهة النظر الصوفية الصحيحة ليست على شىء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر فى الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هى بناء فى الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك ، فإنه كلما سار التصوف فى طريقه واستغرق فيه بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى . ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى ، ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى ويحياها إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى ، على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يتصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك بلا شك نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التى يؤديها ، أريد أن أقول : إن الأعمال فى نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية ، وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها وقد يكون العمل واحداً فى نوعه يؤديه شخصان ، فيوصف عند أحدهما بأنه دينى ، وعند الآخر بأنه دنيوى ، فإن كان القصد « لله » فالعمل دينى ، وإن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أوامرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ومن البديهى أن الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال وأن مسألة الهجرة فيه تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا بل ، لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً . وهانحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد – ونحسن على يقين من الأمر – لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً .

فتوى للإمام الغزالى فى التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

كتب له بعض الزائفين :

ما قوله متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

مع كون ظاهره معموراً بأحكام الشرع وآدابه منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ، ويجد فى الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه أن المقصود من التكاليف الشرعية والرياضات الدينية هو الفطام عما سوى الحق كما قيل لـ « موسى » عليه السلام .

فإذا تم الفطام وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره انقطع عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية وإلى مراعاة الظاهر .

وهذا الرجل ينزع يده من التكليف الظاهر ، ولا يقصر فى أحكام الشريعة لكن الاعتقاد الذى كان له فى الظاهر ، والتكاليف تناقض عما كان فى الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة لا لأجل الخلق وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

« إن المقصود من الداعى والدعوة حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الداعى والواسطة .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعى أبداً لا محالة .

فربما قال الداعى قد بين ما احتيج إلى بيانه وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته فى زوائد وإيرادات لم تكن المراجعة فى هذه الحالة فيقول :

ما هو طبيب علتى فى هذه الحالة ، لأنه غاب عن إمكان المراجعة فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :

الجواب وبالله التوفيق : ينبغى أن يتحقق المريد هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله ، والتجرد له فهو مُصيب فى ظنه إن ذلك مقصود ومخطئ فى ظنه أنه كل المقصود ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى فى الفرائض التى استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام تقتصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ووضع فيه

شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية على ولده أن لا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين وطلب فى البر . والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة ،

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدى أوصانى بحفظ هذا الحشيش لطيب رائحته والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق هذا المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ظهرت من بعض نقب القصر حية هائلة وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيّات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى :

(ذلك مبلغهم من العلم)

وقال : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه ، فهو منتف فى نفسه . ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى كذلك القصر ، وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيها وقيدها بطريق خاصة المكتوبات والمشروعات .

بقوله سبحانه : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقوله تعالى : (كتب عليكم الصيام) فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى استخراج الحيات بل فى استسخار الجن والشياطين وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر فى استمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ، ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة إذا كوشفت السر بها من اللوح المحفوظ . فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد وسجودين وعدد مخصوص وألفاظ معينة من القرآن متلوة ، مختلفة المقادير عند طلوع الشمس وعند الزوال ، تؤثر بالخاصة فى تسكين التنين المستكن فى قلب الآدمى

الذى يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعدد أخلاق الآدمى يلدغه وينهشه فى القبر متمكناً من جوهر الروح وذاته أشد إيلاماً من لدغ من القلب أولا ثم يسرى أثره إلى الروح وإليه الإشارة بقوله ﷺ :

« يسلط الله على الكافر فى قبره تنيناً له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين فى خلق الآدمى ، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة ، فهى المنجية من المهلكات ، وهى أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

(وما يعلم جنود ربك إلا هو)

* * *

فإذاً من التكليف غرضان :

أدرك هذا المغرور أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع « لأبى حنيفة » مثل هذا الظن فى الفقهيات فقال : « أوجب الله فى أربعين شاة ، شاة وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آلة فى الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود .

فقال الشافعى رضى الله عنه .

صدقت فى قولك : إن هذا مقصود وركب متن الخطر فى حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فمم تأمره إذ يقال له يوم القيامه : كان لنا سرّ فى إشراك غير الفقير مع نفسه وفى جنس ماله كما كان من يرمى سبعة أحجار فى الحج يؤدى بدلها خمس لآلئ أو خمساً أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحص التقييد فى الحج ، وأن يتمحص المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحيل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً فى الزكاة فتكون إزالة الفقر والسر غير معقولة ؟

وزاد أبو حنيفة على هذا فقال :

المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان وبين قوله « الله أعظم »

فقال الشافعى :

وكما علمت أنه لافرق فى صفات الله بين العظمة والكبرياء مع أنه تعالى يقول : « العظمة »إزارى و « الكبرياء » ردائى و الرداء أشرف من إزار ، وهل استنبطت مقصود « الخضوع » من الركوع وأقت مقامه السجود .

لأنه أبلغ منه فى الاستكانة ؟

فإن قلت : لعل لله سرًّا فى الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه فلِمَ يستحيل أن يكون له سر فى

كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه الحديث ، وكل خطاب للآدمى وإن يكن له سر فى القرآن المعجز لا يقوم مقامه غيره ، وقد أقام الترجمة مقامه إن يكن له سر فى الفاتحة وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن وتأثر القلب لا حروفه وأصواته فإنها آلات ، فهلا قال المقصود من حركة اللسان تأثر القلب فليكف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى : على هيئة الإجلال والذكر والسؤال ، بصورة الصلاة .

وجميع ما ذكر أبو حنيفة بطلان مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك اللسان وملازمة الذكر مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة فمقطوع ببطلانها بالإجماع وهذا ما انجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدئ فى المعرفة يجرد عن التصور ويطرح الصور ، فيطفئ نور معرفته نور ورعه ، فيثور عليه التنين فى قبره فيتعجب منه ويبدو له من الله ما لم يكن يحتسب فإذا أصابته ضربة التنين قال ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة وإليه الإشارة بما يروى :

« أن الميت يوضع فى قبره فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه فيدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجليه فيدفعها الحج . . » الحديث .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته وقال : من بلغ رتبة الكمال كما بلغت أمِنَ هذا التنين وظهر باطنه عنه فيقال له : إنك مغرور فى أمنك .

(فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

فبمَ تأمن أن يكون التنين ساكناً مستكنًّا فى صميم الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد أو استكنان النار فى الرماد ، وإن مات فيعود حيًّا فإن منبته ومنبعه هذا القلب هو مظنة الشهوات والصفات البشرية . وقلع الحشيش لا يؤمن عوده مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض معرضة لانسياب الماء إليها من منابعها فكذلك القلب مادام مصبًّا لواردات المحسات والشهوات لم يؤمن فيه عود النبات بعد الانقطاع والانبتات .

* * *

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال إبليس وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد اغتراراً بما عنده من العلم وغفلة عن أسرار الله فى الاستعباد ولم يسقط عن

درجته إلاّ بكياسته وفطنته وتمسكه . بمعقوله فى كونه خيراً من آدم ، عليه السلام .

فنبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة .

الثانى : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ، ليعلم أن فى ركوب النهى إبطال (اعتقاد) الكمال لخالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ فإن هذا المغرور لعله يقول : إنه تسلم رتبة الكمال . ثم إنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه بل يزيد فى فرائضه وأوجب عليه التهجد ولم يوجب على غيره وقيل له : (يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا) .

وإنما وجبت عليه هذه الزيادة لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة وشرفاً ، ينبغى أن يزداد حصنها إحكاماً وعلوًّا فلذلك قيل فى تعليل إيجاب التهجد :

(إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) فتبين له أن هذه الصلوات هى حصن الكمال فلا يبقى إلاّ به .

ولعل المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الاقتداء لاحاجته إليها فى حفظ الكمال .

فيقال له : فلِمَ زاد عليه فى التهجد وجوبا ؟ هلا قال إن مبلغ درجة النبوة يستغنى عما يحتاج إليه غيره ولو قال لقبل منه كما قبل منه أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ما شاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء كما قيل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار والتسهد ليلا وهو ينام .

ويقول : إنى بلغت درجة استغنيت بها من ذلك . وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبى والصديق وكل من واظب على الفرائض ، وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم:(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً).

أما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله عن القربة التى نالها والكمال الذى بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح لأن التكاليف قسمان : أمر ، ونهى .

فأما المنهيات : مثل الزنى والسرقة والقتل والضرب والنميمة .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ، والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات .

وأما المأمورات : فكالزكاة والصوم والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ، فما الذى يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار فى شهر واحد هو رمضان .

وأما الصلاة فتقسم إلى :

أفعال وأذكار ، وأفعالها : قيام وركوع وسجود .

ولا شك فى أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل فيكون إما قائماً أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ماهو سبب القربة ؟ قال الله تعالى لنبيه ﷺ : (واسجد واقترب) .

ومن عشق ملكاً ذا جمال فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه استكانة له ، وجدَ فى قلبه روحاً وراحة وقرباً .

ولذلك قال ﷺ :

« جعلت قرة عينى فى الصلاة » فاستدامة حال القربة واستزادتها فى السجود أيسر منه فى الاضطجاع والقعود .

ومهما ألقى فى قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً من حال إبليس ، حيث ألقى فى نفسه أن السجود بحكم الأمر سبب زوال قربته وكماله . فكل ولى سقط من درجة القربة إلى درجة اللعنة فسببه ترك السجود ومقتداه وإمامه إبليس . وكل ولى أسعد بالترقى إلى درجات القرب قيل له :

(واسجد واقترب) ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ .

ولا ينبغى أن يتوهم الولى الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ما دام فى هذه الحياة بل لا ينجو عنه الأنبياء . . غير أنهم محفوظون كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم) .

وأما أركان الصلاة فتكبير وفاتحة وركوع وسجود وتشهد لا فريضة إلا هذا ، فما وجه الضرر فى قوله :

« الله أكبر ، وفى : الحمد لله ، والالتجاء إليه ، واستعانته ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى :

وإن صح ما يقوله مثلا وفى كل يوم آلاف الأنفاس فليصرف هذه الأنفاس المعدودة إلى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر التنين الذى لا يعتد بشر سواه ، ويتخلص من خطر الخطأ فى هذا الاعتقاد .

ولا شك فى أن الخطأ ممكن فيه إن لم يكن مقطوعاً به . وإن قال إن عزوف القلب إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار هو الذى يشغلنى عن درجة القرب فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإلحاحه ، بل يجد من نفسه فى ذلك هزة ونشاطاً .

فكيف لا تكون قرة عين العبد فى مناجاة محبوبه ، وخدمته التى رسمها وارتضاها له ؟

معنى ارتفاع التكاليف عن الولى :

معنى ارتفاع التكليف عن الولى ، أن العبادة تصير قرة عينه وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه[1] .

وهو كالصبى يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهراً ، فإذا اكتمل بالعلم صار ذلك ألذ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ محال ؛ لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به فأى معنى لتكليفه ؟

إذن تكليف الولى محال والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلى ويشرب ، ويزنى .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه والتواضع له ، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته فكذلك غذاء روح الولى ، فى ملازمة ذكره ، وامتثال أمره والتواضع له بقلبه لا يمكنه إشراك القالب مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك فى الالتذاذ قلبه وقالبه كما قيل :

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى : هى الخمر

أى ليدرك سمعى لذة اسمه ، كما أدرك ذوق طعمه ، بل تنتهى لذة الولى من القيام لربه قانتاً مناجياً إلى أن لا يدرك الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً .

---

(١) وفى ذلك يقول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتكلف المواظبة عليها ؟

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق فى وجودها وعدمها فى حفظ درجة الكمال والقرب أو دفع مهلكات الباطل ، وجوز أن يكون لله تعالى سر فيها ليس يطلع عليه هو فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصيته سر هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالإلهية والنبوة تخيل باطل ، فإنه إذا لم يُجوِّزْ فى كمال قدرة الله تعالى سرًّا بعينه من الأسرار وخاصية من الخواص فى الأعمال والأذكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كفر صريح .

وإن جوز ذلك وإنْ لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة فإنه ﷺ بلغ قوله تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).

وفهم الصحابة وأهل الإجماع وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء فإن شك فى إيجاب الرسول فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك فى قدرة الله تعالى على نفسه فى الأعمال والأذكار تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال وكالحراسة عليه من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى فى عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه .

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل إذا أثبت رقومه على خزف لم يصبه ألم بشرط مخصوص .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

=

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

ولو أعطى المرأة التى تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة وأنه يؤثر بخاصية تقتصر عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبته . ويكثر مثل هذا فى عجائب الخواص ، فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية فى الفاتحة مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود والقعود خاصية فى النجاة الأخروية أو فى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التى تلدغ فى القلب لدغاً أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثرة فى سعادة الآدمى بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه ، فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً .

فى وحدة الوجود

١ – نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل – بصورة غير متوقعة – حدة المناقشة فى هذا الموضوع وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الموجود.والموجود متعدد : سماء وأرض ، جبال وبحار ، أشجار ، وأناسى . . . إلخ .

وهو مختلف صلابة وهشاشة لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلا وخفة . . إلخ . ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين – منهم ابن عربى والحلاج – بوحدة الوجود . وماكان لمؤمن ولا يتأتى لمؤمن أن يقول بوحدة الوجود وماكان للصوفية وهم الذروة من المؤمنين أن يقولوا – وحا شاهم – بوحدة الوجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التى يعتقدها كثير من الناس من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟

وتفسير ذلك لاعسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة فى الأزمنة القديمة ، وفى الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، يعنى أن الله سبحانه وتعالى هو والمخلوقات شىء واحد .

قال بذلك هو إقليطس فى العهد اليونانى ، والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه – على حد تعبيره – كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذى يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول :

والله سبحانه وتعالى – فى رأى شلى فى العصور الحديثة – هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم وهو هذه النسائم العليلة التى تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراقة المتألقة

بالنجم الهادى فى ظلمات الليل وهو هذه الورود اليانعة تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة ؛ إنه الجمال أينما وجد ولكنه أيضاً – سبحانه وتعالى – القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة وفيه وسامة يكون جثة ميت ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك ، ولوحدة الوجود ، بمعنى وحدة الموجود أنصار فى كل زمان ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعرى – رضى الله عنه – رأى فى فلسفته الكلامية أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه بأن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة فى آراء هؤلاء الخصوم وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات : لأنه أتفه – فى منطق البحث – من أن نعيره التفاتاً وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك مخترعة ملفقة مزيفة ضالة فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية غريبة على الجو الإسلامى ، تنادى بصورتها ومعناها ؛ إنها اخترعت تضليلا وافتياتاً .

إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج رضوان الله عليه ، أو إلى غيره ، لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه ، لقد اخترعوها اختراعاً ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ – الوجود الواحد : وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق ، الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن ، وليس لكائن غيره سبحانه الوجود من نفسه ، إنه سبحانه الخالق وهو البارئ وهو المصور ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى :

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وصلة الله بالإنسان إذن هى أنه سبحانه يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن إنما هى على هذا النمط ؛ إنه سبحانه مثلا يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.إنه يمسكهما وجوداً ويمسكهما تدبيراً ، ويمسكهما تماسكاً وتناسقاً . . إنه يمسك فيهما الكيف والكم ، وإذا ما سحب إمداده عنهما تلاشتا كماً وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى محيط بالكون ، مهيمن عليه قيوم السموات والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت وقائم على كل ذرة من كل خلية وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكثر بحيث لا يعزب عن هيبته ، عن قيوميته ، مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة ليهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له وفى إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

٣ – ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد . إن الله سبحانه وتعالى يوجه نظرنا فى سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون :

(أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . . (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) . . . (أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) .

وعلى العكس من ذلك لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، وبيده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً .

أرأيت هذه الرمية التى ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

أرأيت الانتصار فى الجهاد ، إن هذا الانتصار من عند الله ؟ أما القتلى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) .

ورزق الإنسان هذا وطعامه :

(فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبًّا ، ثم شققنا الأرض شقًّا ، فأنبتنا فيها حبًّا وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبًّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم) .

٤ – هذه الهيمنة وهذه القيومية يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً إنهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل ، إن الله سبحانه وتعالى لا يحتل من شعورهم درجة أيًّا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين إنما هو ملء البطن ، أوكتز الذهب والفضة أو التزاع على جاه أو العمل لتثبيت سلطان ، إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها وتحيط بهم آثاره فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يحتل فى قلوبهم ولا فى تفكيرهم ولا فى بيتهم ولا فى حياتهم ، قليلا ولا كثيراً .

والطرف الآخر المقابل لهذا هو هؤلاء الذين انغمسوا حقًّا فى محيط الإلهية ، سبحوا فى بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية وغمرهم لألاؤها وضياؤها لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التى تحيط بهم من جميع أقطارهم فزادهم الله نعماً وآلاء :(لئن شكرتم لأزيدنكم . . .)

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله .

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم وأخذوا شيئاً فشيئاً يحاولون تحقيق التوحيد ، قولا وعقيدة وتذوقاً وتحققاً وأخذوا يرون فى « أشهد أن الا إله إلا الله » معانى لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين سبب شقائهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك ، يحطمون أصنامه ، وأوثانه من النفس والهوى والشيطان ومن الغرائز الحيوانية والغرائز الإنسانية وانهار الشرك حتى همسات الفؤاد ، لقد انهار الشرك الواضح وانهار الشرك الخفى وثبت فى أذواقهم واستقر فى أحوالهم . ومقاماتهم : « أن لا إله إلا الله » وأنه (أينما تولوا فثم وجه الله) وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشيرهم إنه يغمر كيانهم فلا يرون غيره سبحانه ، لا يرون غيره قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره مالكاً للملك يؤتى الملك ، من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين . وأصبح الله فى بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفى قلبهم من قبل ذلك ومن بعده يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٥ – وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة ، لا نتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء .

لقد حاولوا أن يواجهوا نظر الناس إلى الله عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شىء خلقه سبحانه ، أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : فى الزهرة تتفتح ، وفى الزرع ينبت متجهاً إلى السماء ، وفى الشمس تشرق وفى القمر يتألق وفى مواقع النجوم ومداراتها . وفى كل هذا الإبداع السارى فى الكون . يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة .

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

وكان تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة – وهم فى تعبيراتهم – يشرحون أن الله سبحانه وتعالى الممد الوجود لكل موجود . إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة .

إنه – على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة – الذى يقطع وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق وليست النار هى التى تحرق ، وهو الذى حينما يريد يقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون برداً وسلاماً .

ومهما عبر الصوفية فى هذا الميدان عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا واشتطوا فإنهم لن يبلغوا المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة ، التى تمثل فى روعة رائعة المهيمنة المهيمنة والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل والتى لا تعنى وحدة متحدة ولا اتحاداً متطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد ، والمعبود والآية هى :

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن) .

والآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن « لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيًا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائمًا إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض ، وبالنظر إلى أسفل وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ويوجههم إلى الله تعالى ، فهؤلاء إنما يحاربون الله ورسوله وجزاؤهم معروف .

٦ – وقد تتساءل فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟ إن أمر هذه القضية قضية الحلاج معروف سرها ولم يكن خافياً فى يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون معه أينما ارتحل .

وكان – ككل صوفى – يحب آل البيت ، لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت نسل رسول الله ﷺ ، ومادام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان وتتجه إلى كل بلد فيجب – حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لاستقرارها – أن يتكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينياً قط ، وإنما كان سياسياً بحتاً ، ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم .

فكان ما كان من قضية ومن قتل ، والدين من كل ذلك براء والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه ، وكتبه – وبعضها موجود – لاتسند خصومه ولا تؤيدهم هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح ألاّ يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء وألاّ يحكم الأديب باعتباره أديباً فى أعمال المهندسين ، ومن العدالة – على هذا الوضع – ألاّ يحكم على هذه القمم الشامخة – ابن عربى والحلاج وابن الفارض – من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلاناً ينتقد ابن عربى فى المجلات ، فقال رضوان الله عليه وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعى – رضوان الله عليه – فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيى الدين بن عربى : إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا اهـ .

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف الرأى الحق هو ما قاله الإمام الشعرانى ، عن الصوفية عامة وعن سيدنا محيى الدين خاصة : « ولعمرى ، إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم

عين الله بل قالوا (ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى) فكيف يظن بأولياء الله أن يدعو الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم رضوان الله عليهم » . ا هـ .

فلابد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه رضى الله عن سيدنا محى الدين ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعنا بهم وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

ما هو التصوف الإسلامى ؟ ومتى بدأ ؟ ومن هم الأوائل ؟

يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٣ هـ فى تعريف التصوف :

« التصوف خلق فمن زاد عليه فى الخلق فقد زاد عليه فى الصفاء » ويقول : أبو الحسن النورى : « ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ولكنه خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : « لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .

ويقول أبو الحسين أيضاً : « التصوف الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء » أما أبو سعيد الخراز فإنه يعرِّفه بقوله : « من صفى ربه قلبه ، فامتلأ نوراً . . ولا دخل فى عين الله فيذكر الله » وسئل الشبلى عن التصوف فقال : « بدؤه معرفة الله . . ونهايته توحيده » .

والتعريف الجامع هو قول أبى بكر الكتانى : التصوف صفاء ومشاهدة .

ولقد بدأ التصوف مع الإسلام مباشرة وذلك لأنه خلق كريم واتجاه إلى الله فى اليسير من الأمور والعظيم منها ، وهذا هو الإسلام ، ومن أوائل الصوفية بعد الصحابة والتابعين ، إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وذوالنون المصرى ، والحارث بن أسد المحاسبى رضى الله عنهم أجمعين .

فى قول الله تعالى : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)

وعلى ضوء هذه الآيات يمكن أن نصف الولى بأنه المؤمن التقى . . وقد جمعت التقوى صفات عديدة ذكرها الله تعالى فى مجالات مختلفة من القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى : (ذلك الكتاب

لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) . والمتصوف حقًا من تحقق الإيمان ودعم الإيمان بالتقوى فى قوله وفعله ، وخلقه ومشاعره ، وفكره وكل شئون حياته فضم إلى العلم العمل ، وأقام العمل على أساس من التدين الصحيح وللذكر عند الصوفية مقام جليل وعليه عماد اجتهادهم ومحور سلوكهم يناجون به ربهم ويستمطرون به رحمته ، ويتحققون عن طريقه بالعبودية الخالصة .

فإذا ما قلنا إن كل متصوف – تصوفاً حقيقيًا – ولى لله تعالى فلا مبالغة فى هذا القول ، وإذا ما قلنا بأن من الأولياء من ليس بصوفى . . فلا خطأ فى هذا القول أيضاً ، (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) . . (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) .

واحترام المؤمن التقى – أو الولى – صوفيًا كان أو غير صوفى مطلوب والخروج عن هذا الاحترام مرذول . والله تعالى يقول فى الحديث القدسى :

« من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب . . . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وإن سألنى لأعطينه » .

فالأولياء الحقيقيون موجودون إلى قريب من الساعة ، والصوفية نوع منهم يقول ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

فى وجود أولياء لله تعالى من النساء

لا مانع من وجود أولياء لله تعالى من النساء ، فمريم عليها السلام التى عبدت ربها وبالغت فى حصانة نفسها كانت صديقة ، وكانت من القانتين وامرأة فرعون التى ضاقت بكفر زوجها وآمنت بربها ، وقالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، كانت من أولياء الله والسيدة خديجة أم المؤمنين وابنتها الزهراء من أولياء الله تعالى ، والسيدة عائشة رضى الله عنها وسائر أمهات المؤمنين وبنات النبى ﷺ من أولياء الله وكل من آمن بالله تعالى وأخلص فى عبادته من الرجال والنساء .

فى الطرق الصوفية

الطرق الصوفية وسائل لتزكية النفس وتهذيب الخلق وتحسين السلوك ، والسير بالمريد فى طريق الاتباع العملى للرسول ﷺ ليكون مؤمناً حقًّا ومسلماً صدقاً ، ولا يشعر بأثر الطرق الصوفية إلاّ من مارسها بإخلاص وهيأ الله له من وسائل الترقى ما يحقق له الوصول .

وبينما الصوفية الحقيقيون يدعون إلى الله بالقول والعمل ، ويحاولون انتشال المؤمنين من كل ما يثبط عن الدين أو يصرف من هدى النبوة ، فإن بعض الأدعياء قد شوهوا صورة التصوف فى نظر الناس وأدخلوا فيه ما ليس منه بل ما يخالف أسسه وقواعده ، وتحولوا به عن الهدف الذى يميزه عن غيره من ألوان التربية والتعليم . . فغالوا فى الحديث عن الكرامات وجنحوا به نحو الشعوذة والمظاهر البعيدة عن روح الإسلام الصحيحة والمنافية لحقيقة الاتباع .

ولعل هؤلاء الأدعياء هم الواجهة السيئة التى يصرف الله بها عن الحق من لم يصدق فى قصده ولم يتحقق منه كمال العزم فى نيته إذ إن على من يريد التصوف الحقيقى ألا يعير هؤلاء المدعين أدنى أهمية وأن يبحث عن التصوف الحقيقى فى أهله ، والحق واضح والباطل لا يخفى ، قال تعالى : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) وقال ﷺ : « الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ » .

فإذا لم يعط بعض الطلبة الطرق الصوفية أية أهمية فإن ذلك راجع للفكرة الخاطئة التى يروجها أعداء التصوف خاصة والإسلام عامة عن التصوف بأنه وسيلة للتكاسل والتواكل والاستجداء والبعد عن تحمل مسئوليات الحياة ، كما طالب الإسلام ، والتى يؤكدها أدعياء التصوف والمنتسبون إليه والمخربون فيه من الداخل ، ولكن هذا العذر غير مقبول ، لأن الحق عزيز وطالبه لابد له من البحث عنه والتماس الطرق التى توصل إليه .

ومن هذه الطرق الدخول فى طريقة صوفية تبعد الإنسان من ناحية الفكر والسلوك عن كل ما يشين ، وتوجهه إلى طريق الخير وتجمع مع غيرها من الطرق المسلمين شباباً وشيوخاً رجالا ونساء على كلمة التوحيد ومبادئ الدين ، مما يؤدى إلى سيادة مبادئ الدين ووحدة المسلمين .

فى حكم الطرق الصوفية حلال أو حرام

الطرق الصوفية فى معناها الصادق وسائل متعددة للهداية إلى الله تعالى ، إنها تعمل على هداية الأفراد وتعمل على هداية الجماعات وتريد أن تصل بالمجتمع إلى أن يكون مجتمعاً ربانيًّا ، وشيخ

الطريقة يرجو الله دائماً أن يدخل فى نطاق من قال رسول الله ﷺ فيهم : « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم » .

وهى تبدأ – جميعها – بالتوبة الخالصة النصوح إلى الله تعالى ، ومن المعروف أن الله تعالى حث على التوبة بشتى الوسائل ، وحث عليها رسول الله ﷺ بمختلف الوسائل يقول الله تعالى :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) .

ويقول سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويروى الإمام مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وللتوبة شروط : يشرحها الإمام النووى فى كتابه الجميل « رياض الصالحين » فيقول : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

والثالث : أن يندم على فعلها . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، يروى الإمام مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

وأخذ العهد بيعة : روى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات رسول ﷺ وقد صلت معه للقبلتين . وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار قالت :

جئت رسول الله ﷺ ، نبايعه فى نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألاّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن .

ارجعى فسلى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ فسألته ، فقال : تأخذ ما له فتحابى غيره . ومشايخ الطرق يتأسون برسول الله ﷺ فى الدعوة إلى البيعة على طاعة الله ورسوله ، ولا يخرج العهد عن أن يكون بيعة على الطاعة .

والبيعة على الحجو الإسلامى من أسمى الوسائل فى تقريب العبد من ربه ، وهى مجموعة من العقائد والأخلاق أحبها الله ورسوله ، وهى عامة للرجال والنساء .

وقد ذكر الله تعالى : فى القرآن الكريم بيعة النساء فالله تعالى يقول : (يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألاّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) .

وقد ذكرت السنة الصحيحة بيعة الرجال ؛ روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى عنه ، وكان عبادة شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله جماعة من أصحابه:« با يعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك . وهذه بيعة عامة .

وقد تكون البيعة بيعة خاصة ، كبيعة الرضوان ، يقول الله تعالى فيها :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بماعاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

ولقد بين رسول الله ﷺ أن البيعة تتخذ صوراً مختلفة وذلك أنه ما دام أساسها طاعة الله ورسوله فهى بيعة لله تعالى .

ومن صور البيعة مثلا أن يمتشق الإنسان الحسام فى سبيل الله وأن يطلق المدفع جهاداً للعدو ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : « من سل سيفه فى سبيل الله فقد بايع الله » .

كل هذه ألوان من البيعة والبيعة أوسع من ذلك .

ومن عاهد الشيخ فقد بايعه على الطاعة ومن بايع على الطاعة فقد بايع الله سبحانه وتعالى : وليست البيعة على الطاعة الصادقة بأقل من البيعة على امتشاق الحسام أو استلام الحجر الأسود ، بل إن امتشاق الحسام واستلام الحجر الأسود أجزاء من البيعة على الطاعة .

ونعود فنقول إننا حينما نتحدث عن الطرق الصوفية إنما نتحدث عن الطرق الصادقة التى تسير متناسقة تماماً مع جو القرآن والسنة .

(ومن يشاقق الرَّسول من بعد ماتبيَّن له الهُدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ماتولى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيراً) .

أما المتبع فإنه يدخل تحت قوله تعالى : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

فى تعدد الطرق الصوفية

يقول السادة الصوفية :

التوحيد واحد ، والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم . .

ويعنى قولهم هذا هو أن نتيجة سلوك الصوفية لا تختلف من قطر لقطر ولا من زمن لزمن ولا من شخص لشخص ، إنها التوحيد ، توحيد الله سبحانه فى ذاته وتوحيده فى خلقه وفى تصوفه وفى عنايته بالكون ورعايته ألا له الخلق والأمر إليه يرجع الأمر كله .

وإذا كان التوحيد واحداً وإذا كانت هذه الحقيقة من طبيعتها لا تتغير ولا تختلف فإن طريق القرب من هذه الناحية طريق تذوقها اليقين ، فالطرق تختلف والثمرة واحدة .

أما السبب فى اختلاف الطرق فهو أن طبائع الناس وفطرهم مختلفة يصلح لبعضها ما لا يصلح للبعض الآخر ، وقد يصلح لسلوك طريق ولا يصلح لسلوك طريق آخر ، وقد يصلح طريق لشخص ولا يصلح لآخر . .

والناس – منذ أن وجد الناس – يحاولون جهدهم التقرب من الله ، لأن فى القرب من الله كمالا ذاتيًّا وذلك أن الله هو الكمال المطلق ، فالقرب منه سبحانه قرب من الكمال ، وقد ورد : « تخلقوا بأخلاق الله » وورد « كونوا ربانيين » . والناس كذلك يحاولون جهدهم القرب من الله

لأن من كان قريباً من الله كان الله قريباً منه بالرعاية والعناية والتوفيق . وسلك الناس طرقاً إلى الله مؤسسة على الأساس العام ، وهو الشريعة .

سلك بعضهم طريق الذكر على الخصوص ، وسلك بعضهم طرق الصوم على الخصوص ، وسلك بعضهم طرق الصلاة على الخصوص ، وهكذا .

ونجحت بعض هذه المسالك فى الوصول إلى القرب من الله ، فرسمها من نجحت معه طريقاً وبيَّنها سبيلا ، ودعا إليها مسلكاً وذاعت فكانت طريقة صوفية ، وهذا منشأ الطرق .

إنها لا تعدو أن تكون إبرازاً لزاوية معينة من زوايا الشريعة دون إهمال لسائرها ، بل من التمسك بسائرها ومن أهمل شيئاً من الشريعة فليس من التصوف فى شىء .

فكلهم من رسول الله ملتمس غَرْفاً من البحر أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

فى تمسك الطرق بالكتاب والسنة

إن الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، هو الصراط المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه ، وما من شك فى أن من التزم كتاب الله تعالى واستمسك بسنة نبيه فإنه يكون من الناجحين الفائزين فى الدنيا والآخرة وذلك هو الاعتصام بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

وكل طريقة صوفية سليمة إنما تدعو إلى التزام الكتاب والسنة والطريقة التى تنحرف عن ذلك تكون فاسدة ضالة مضلة : فقد نزل القرآن بياناً للهداية الصادقة ، وفسره رسول الله ﷺ بقوله وعمله وبأحوالها كلها فمن حاد عن ذلك فهو من الخاسرين .

فإذا التزمت الكتاب الكريم والسنة الشريفة فإنك من الفائزين وأما قولك : « وأحكِّم عقلى » فذلك يحتاج إلى تنبيه ، وذلك أن الدين نزل هادياً للعقل ، وكونه نزل هادياً للعقل يقتضى أن يتحكم الدين فى العقل ، وأن يقوده وأن يهديه إلى الطريق المستقيم ، ويقتضى أن يستسلم العقل للدين ولعلك تريد بذلك أنك تستعمل عقلك لتفهم النص على وضعه الصحيح ، فإن كنت تريد ذلك فإنك على حق ونرجو الله أن يكتب لك التوفيق .

أين تقف الصوفية اليوم من هزات العلم ومادية العصر؟

الإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده (ورضيت لكم الإسلام ديناً) أساسه التوحيد وتكوين الضمير القائم على الخشية من الله ومراقبة الله فى السر والعلن . وحسن الصلة بين المرء ونفسه وبين المرء ومجتمعه ، اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخُلق حسن .

ووظيفة العبادات فيه : عبادة الخالق ، وتنمية روح الجماعة فى النفس ، والحد من الأنانية ، ودفع روح التعاون والمحبة والمودة ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ومنهج الإسلام هو منهج الحياة المستقيمة فى جميع جوانبها ، وفى اتجاهاتها المختلفة فى المكتب والعمل ، وسياسة الأسرة والأمة ، وفى الدنيا والدين (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) ولقد عمل الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم فى كل مناحى الحياة فأتقنوا العمل ، وجعلوا الله قبلتهم فى كل شىء وصيروا الدنيا مزرعة الآخرة ، وكانوا مع الله فكان الله معهم ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

هذه خطوط عريضة لمنهج الإسلام وخطته ومبادئه السامية .

وقد التزم بها الصوفية المخلصون وأخذوا بها أنفسهم وسألوا الله سبحانه التوفيق فيما قصدوا ، والإخلاص فيما عملوا ويعملون .

وما أحوج البشرية اليوم إلى الالتزام بهذا المنهج الإلهى فى وقت طغت فيه المادية واستشرى فيه الإلحاد ، وسادت فيه الأنانية وعم الجشع والطمع ، وازدادت فيه ضراوة الطغيان ومجاوزة الحد فى الظلم حتى بات فيه الضعيف هلعاً ، والفقير جزعاً والحق مهضوماً والسلام مهدداً ، بسبب مادية العصر ، وطوفان الإلحاد وكثرة الفساد والاغترار بالمنجزات العلمية ، والتفوق فى التقنية والتكنولوجيا .

فما أحوج البشرية لمنهج الصوفية الصافية والرجوع إلى الله : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

والإسلام يبارك العلم والتقدم والرقى لخير البشرية وسعادتها .

بالغ الصوفية فى التحدث عن كرامات الأولياء فلا يكاد يخلو كتاب صوفى من عرض العديد من كرامات مشايخ الصوفية فما هو وجه الحقيقة فيما يدّعونه ؟ وما هى الحدود الفاصلة بين الكرامة والخرافة

ليس لأحد أن يبتدع تعريفاً للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها ؛ إنه سبحانه وتعالى يقول عن « الأولياء » إنهم :

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم ، وعنايته بهم فقال سبحانه : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

وزاد سبحانه وتعالى تفضلا بالنسبة لهم فقال :

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى : (لا تبديل لكلمات الله) .

ثم بين نفاسة الثمار التى تجتنى من الولاية فقال :

(ذلك هو الفوز العظيم) .

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى قال :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ومعنى آذنته بالحرب : أعلمته بأنى محارب له . وكرامات الصحابة والتابعين لاتكاد تحصى : فى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة ، فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا ، فتفرق النور معهما . وفى البخارى أيضاً أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة .

ونادى عمر بن الخطاب : « يا سارية الجبل » يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو ،

وبينهما مسيرة أيام فسمعه سارية ، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو ، ويقول صاحب كتاب نشر المحاسن عن ظهور الكرامات :

« إنها جاء عنها فى القرآن الكريم ، والأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد ، فمن ذلك فى القرآن الكريم ما أخبر الله تعالى عن مريم رضوان الله تعالى عليها بقوله عز وجل:(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنّى لك هذا ، قالت هو من عند الله) .

« وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ، هكذا جاء فى التفسير وكذلك إلهام أم موسى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – فى أمرها ما هو معروف ، وكذلك ما أخبر الله تعالى من العجائب على يد الخضر رضوان الله تعالى عليه مع موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وكذلك قصة ذى القرنين رضوان الله تعالى عليه ، وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره ، وكذلك قصة عرش بلقيس فى قوله تعالى :

(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) . وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء . اهـ.

ويقول الإمام الشافعى : « ظهور الكرامات على الأولياء رضى الله تعالى عنهم جائز عقلا ، وواقع نقلا ؛ أما جوازه فى العقل فلأنه ليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى ، بل هو من قبيل الممكنات ، كظهور معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والنظار الأصوليين ، والفقهاء والمحدثين رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وتصاريفهم ناطقة بذلك شرقًا وغرباً عجماً وعرباً ». اهـ .

فى الأوراد الصوفية

الورد التزام صيغ معينة – من العبادة القولية والقلبية فى أوقات معينة من النهار أو الليل ، وهذه الصيغ المعينة قد تكون استغفاراً ، بسيد الاستغفار مثلا وهو :

« اللهم أنت ربى لا إله إلاّ أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى (أى أعترف) فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت » وقد يكون الاستغفار بصورة يسيرة هى تكرار أستغفر الله أستغفر الله .

وقد تكون صيغة الورد الذكر باسم من أسماء الله وتكرار مئات أو آلاف المرات مثل لفظ الله .

أو الذكر بلا إله إلاّ الله ويقول رسول الله ﷺ : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله » .

وقد تكون صيغة الورد صلاة على الرسول ﷺ معينة من صيغ الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد تكون صيغة الورد جزءاً معيناً من القرآن لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقسمون القرآن أقساماً يقرءونها يومياً كل بحسب فراغه واستطاعته .

والعادة أن يكون الورد باقة متسقة من كل ماذكرناه .

فى التوكل

إن المعنى الحقيقى للتوكل هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً ، أن من وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب فى أسسها وبواعثها ، وهى مشرفة على الأسباب فى غاياتها ونهاياتها ، وعلى الإنسان أن يعمل كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب . وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه حينما بُويع بالخلافة أصبح ذاهباً إلى السوق يتجر كعادته فتكاثر عليه المسلمون قائلين : كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ قال لهم : لا تشغلونى عن عيالى . فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع .

حتى فرضوا له قوت أهله من بيت المسلمين .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ويكتسبون وكانوا ، مع ذلك من كبار المتوكلين ، فالكسب لا ينافى التوكل .

ما الذى يفهم من رؤيا الرسول ﷺ فى المنام ؟ .
وهل تصدق الرؤيا ؟ . .

يقول رسول الله ﷺ : لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة .

وما من شك فى أن رؤيا رسول الله ﷺ من الرؤى الصالحة ، فإن الشيطان لا يتمثل به ﷺ فى الرؤيا ، يقول ﷺ :

« من رآنى فى المنام فكأنما رآنى فى اليقظة ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » .

وهذه الرؤيا بشرى طيبة لصاحبها ، وعليه أن يسلك السلوك الذى يناسب الرؤيا بأن يلزم

الإنابة إلى الله تعالى ، ويحافظ على أداء الفروض الدينية ومتابعة الرسول ﷺ فى النوافل والسنن ، وأن يقرأ سيرته ﷺ فى الكتب الصحيحة حتى يمكنه أن يتأسى به ﷺ فى صورة صادقة . .

هل يمكن رؤية الشخص العادى لسيدنا جبريل عليه السلام ؟

نعم يمكن الشخص العادى أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام ، فليست رؤيته بمستحيلة ولكن ليست رؤيته وعدمها خاضعة لرغبة شخص أو عدمها ، وإنما هو ذلك كله إلى الله عز وجل وعلى المنحو الذى يريده الله سبحانه حسب قدرة الرائى ، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ليس كآحاد البشر ،وقد رأته السيدة مريم عليها السلام وليست بنبية ورآه أناس كثيرون فى حياة النبى ﷺ وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . إلخ الحديث فى أول صحيح مسلم ، وكان هذا الذى رآه الصحابة هو جبريل عليه السلام وليس معنى أنه يُرى أن كل من يراه يُوحى إليه وحى تشريع ، لأن وحى التشريع انتهى بوفاة رسول الله ﷺ ، وإنما تعتبر الرؤيا مناماً أو يقظة بالمعنى الذى يتناسب وحال الرائى من بشارة أو نذارة أو تقرير ، أو نحو ذلك والله أعلم .

فى حكم من ليس لديه مال لزيارة قبور الأنبياء والأولياء

يقول الله سبحانه وتعالى : (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها) ويقول تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً) .

وإن من فضل الله على بنى البشر وتكريم الله للإنسان أن كلفهم بما يطيقون فهو بخلقه رءوف رحيم لا يكلفهم ما يشق عليهم أو ما يعجزون عنه ، يقول سبحانه : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وزيارة قبور الأنبياء والأولياء ليست واجبة ومع أن الحج ركن من أركان الإسلام فإنه واجب مادام الإنسان قادراً على ذلك ، مستطيعاً أداءه فإذا لم يستطع فإن الله سبحانه وتعالى : لا يؤاخذه على عدم أدائه .

أما زيارة القبور بالنسبة للأنبياء والأولياء فهى سنة ، فقد ورد فى حديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وآتاكم ما توعدون غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . اللهم اغفر لأهل

بقيع الغرقد» ، رواه مسلم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مرَّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه الترمذى حديث حسن . فالذى لا يملك من المال ما يمكنه من زيارة قبور الأنبياء والأولياء فليس عليه شىء ، وله أن يقرأ شيئًا من القرآن ويجعل ثواب ذلك للنبى ﷺ ، وعليه أن يصلى عليه كثيراً ، فمعنى الصلاة عليه صلة توصله برسول الله ﷺ ، ويقرأ القرآن ويهب ثوابه لروح الولى ويدعو له بالرحمة والمغفرة . وإن ذلك يكفيه إن شاء الله .

يذهب بعض الناس إلى أضرحة الأولياء بطلبات لهم مكتوبة مؤملين قضاءها فما علاج هذه الحالة ؟

إن آمال الإنسان ، إذا لم تجد تحقيقاً لها فى عالم الواقع وعالم الأسباب والمسببات تحاول : معتمدة على الخيال ، أن تجد تحقيقاً لها عن طريق غير عادى ، فتلجأ إلى وسائل ليست بالوسائل العادية .

وقد أمر الله سبحانه وأمر رسوله صلوات الله عليه باتخاذ الوسائل والأسباب الطبيعية العادية : كالدواء للشفاء ، وكالعمل لكسب الرزق .

ومع أن كل شىء بأمر الله فقد جعل الله فى العالم نواميس وأسباباً ومسببات ، وعللا ومعللات ، فلا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

فإذا ما أدى الإنسان ما عليه بالطريق الطبيعى فإنه بعد ذلك يترك الأمر لله متجهًا إليه سبحانه أن يجعل عمله منتهيًا إلى النجاح ، وأن لا يخيب رجاءه فى مسعاه . وقد قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) .

وقال سبحانه : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) .

وإننا فى كل يوم نكرر فى الصلاة قوله تعالى : (وإياك نستعين) فيجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى ، فى قضاء أموره مع اتخاذه الأسباب التى جعلها الله تعالى نواميس للكون ، وأمر عباده بالسير على منهاجها .

فى إقامة الموالد فى المساجد

إن المساجد بيوت الله تقام وتشيد لتكون واحات ترتاح فيها النفوس من صحراء الحياة المجدبة ، ترتاح فيها النفوس بالعبادة والذكر ، والاتجاه إلى الله مستغفرة ضارعة ، وترتاح فيها النفوس بالاستماع إلى دروس التفسير ، والحديث والفقه ، وعلوم الدين على وجه العموم .

ولقد أنشئت المساجد لتكون أمكنة للدرس كما تكون أمكنة للعبادة بل لتكون أندية للصلح بين الناس ، ولحل مشاكل المجتمع العامة والخاصة .

فإذا انتقلنا من المساجد إلى الموالد فإن الحكمة فى إقامة المولد ، إنما هى التذكير بفضائل من يحتفل به ، وتعليم الناس التأسى به فى أخلاقه الجميلة ، وأحواله الحسنة ، وأعمال الخير التى أراد بها وجه الله تعالى ، وشرح ما قام به من خدمات للإنسانية . وكل ذلك من أجل التأسى به والاقتداء بسيرته ، وحينما تلتقى أهداف المولد بأهداف المسجد ، وحينما لا تتعارض الأهداف فإنه يجوز إقامة المولد بالمسجد . ومن أهداف المساجد ما ذكره الله تعالى بقوله : (فى بيوت أذِن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكره فى قوله سبحانه : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

يجوز إذن الاحتفال بالمولد فى المسجد بشرطين :

١ – أن تلتقى الأهداف .

٢ – ألا يؤدى الاحتفال إلى مفسدة ، كأن يكون فيه تشويش على المصلين بالفعل أو التكلم بكلام لم يأت به شرع ، أو تعطيل قيام فريضة .

فى ذكر أسماء الأولياء

هذا الهتاف هو نوع من الاستغاثة ، مثل يا أبى ، يا أخى ، والحقوا بى ، وأغيثونى ، ونحو ذلك . ولا يمانع أحد فى الاستغاثة بالحى فيما يمكن أن يساعد فيه من دفع للصوص ومشاركة فى عزاء ، أو فى تحمل مسئولية أو ما إلى ذلك .

أما إذا كانت الاستغاثة بالحى فيما لا يمكن أن يساعد فيه كتفريج كربة أو تحسين مستقبل أو تحقيق بركة فى مال أو عمل أو ما إلى ذلك فإن كانت على وجه الاعتقاد بأنه يستطيع النفع والضرر وأن له بعض خصائص الألوهية فهى كفر والعياذ بالله ، لأنه اعتقد النفع والضر فى غير الله سبحانه وتعالى .

وإن كانت على وجه التبرك وطلب المعونة بالدعاء لحسن اعتقاد أو معرفة بتقوى وصلاح من استغاث به فلاشىء فيها ، وقد قال الرسول ﷺ لعمر ، وقد جاء يستأذنه فى العمرة ، لا تنسنا يا أخى من دعائك .

وسواء أكان المستغاث به قريباً أم بعيداً ، حيًّا أم ميتاً فالمدار على تحسين الاعتقاد ، وعلى أنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله ، وجميع المسلمين يعلمون ذلك ويؤمنون به ، ويعتقدونه .

على أننا يجب أن يكون توجهنا دائماً إلى الله تعالى فى كل ما نتعرض له من أخطار « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

فى الطريقة التيجانية

الطريقة التيجانية طريقة من طرق أهل التزكية ، تزكية النفس ، الذين تخصصوا لتصفية القلوب من المعاصى الباطنة ، وهم الذين يسميهم العلماء المحققون « الصوفية ».

وإذا كان من العلماء من تخصص لدراسة العقائد ورد شبه الملحدين والمشككين ومنهم من تخصص فى استنباط الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة . ومنهم من تخصص فى دراسة السنة ورجالها ، لتمييز الصحيح من غيره من حديث رسول ﷺ .

فإن منهم من تخصص فى تزكية النفوس وتربية الهمم وتطهير القلوب من الأدران والأرجاس ، سيراً فى طريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بحسب الطاقة الإنسانية وهم الصوفية ، ومنهم التيجانيون .

أما عن ملاءتهم البيضاء التى يجلسون حولها فأصلها : أن أصحاب الشيخ أحمد التيجانى كانوا يذكرون فى ساحة يسير الناس فيها بنعالهم ، وتعتبر الطهارة فيها حكمية ، فاقترح بعض هؤلاء الأصحاب أن يتخذوا فراشاً أطهر من هذه الأرض ، فاتخذوا هذا الفراش لزيادة الثقة بالطهارة عند الذكر .

ومن التيجانية من يفعله ، ومنهم من لا يفعله ، ومما لاشك فيه أنه من المتفق عليه أن الطهارة

مندوبة عند ذكر الله عز وجل بدناً وثوباً ومكاناً ، وكلما كانت الطهارة أعظم كان النور أعظم .

أما عن فعل الرسول ﷺ أو عدم فعله لذلك فليس كل مالم يفعل على عهد رسول الله ﷺ باطلا متى كان جائزاً عقلاً وشرعاً ، ولا ترده القواعد الشرعية ، وهذا الفعل لا يتصل بالأحكام الشرعية فى قليل ولا كثير ، إنه من فروع الشريعة اليسيرة ، بل من الفضائل . من شاء أخذ به ، ومن شاء لم يأخذ ، ولا يلتزم التيجانيون به التزاماً مؤكداً ، وليس من أعمدة الطريقة أو أسسها الهامة . .

فى أوراد الطريقة التيجانية

أوراد الطريقة التيجانية كغيرها من الطرق داخلة فى نطاق الذكر ، ولذاكرها ثوابها ، وقد وردت فى الحث على الذكر عموماً آيات وأحاديث كثيرة مشهورة ، منها قوله تعالى : (فاذكرونى أذكركم) وقوله (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكره وأصيلا) وقوله : (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وقول الرسول ﷺ : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله . . مثل الحى والميت » . . وقوله : سبق المفردون . وقيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً .

وقوله : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

ولكن المسلم قد يلزم نفسه بذكر معين ويعاهد الله على هذا الالتزام ، وحينئذٍ يلزمه ما تعهد به لقوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) . . وقوله ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » .

والأوراد على وجه العموم ليست فريضة ، وإنما تكون سُنّة إذا كانت مما كان يقرؤه رسول الله ﷺ وبالصورة والكيفية التى كان يقرؤها بها ، وأوراد الطرق ليست كذلك ، فهى ليست فريضة ولا سنة ، وإنما هى طاعة لله سبحانه يلتزمها من أحب ، ويترك التزامها من أراد .

فى دلائل الخيرات والطريقة التجانية

إن دلائل الخيرات إنما هى صلوات على رسول الله ﷺ ، ولا تمنع طريقة من الطرق الصلوات على رسول الله ﷺ وذلك لأن الله أمرنا بالصلاة عليه فقال سبحانه وتعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) .

ورجال الطريقة التيجانية ومشايخها يقرءون دلائل الخيرات ، وكان الشيخ عمر غمبو خليفة الطريقة التيجانية فى السودان يقرأ دلائل الخيرات هو وتلاميذه ، وتابع أبناؤه قراءتها من بعده . بل إنه توجد نسخة من دلائل الخيرات بخط العارف بالله الشيخ أحمد التيجانى الكبير شيخ الطريقة . ويقول فضيلة الشيخ محمد الحافظ التيجانى خليفة الطريقة بجمهورية مصر العربية : إن الأوراد اللازمة فى الطريقة يصح أداؤها بأى صيغة للصلاة على النبى ، وإنه يجوز لقارئ ورد التيجانى أن يقرأ دلائل الخيرات ، بل إن فى الطريقة التيجانية أحزاباً من الطريقة الشاذلية وحزب النووى ، ولاحرج على السالك أو المريد فى صيغة الصلاة على الرسول ﷺ مادام يلتزم طريقة واحدة ، لأن من انقطع لشىء أحسنه .

أسماء الله الحسنى والطريقة التيجانية

قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلحِدون فى أسمائه ، سيجزون ماكانوا يعملون) .

وإذا كان الله تعالى يأمرنا فى هذه الآية بدعائه بأسمائه الحسنى فلا يصح من أحد – كائناً من كان – أن يحرِّم قراءة الأسماء الحسنى أو الذكر بها .

والشيخ أحمد التيجانى رحمه الله لم ينه عن الذكر بالأسماء الحسنى أو التقرب إلى الله تعالى بقراءتها واستحضار معانيها ، وكيف يقول بذلك ، وأذكار طريقته التى قررها وغير ذلك من الأذكار التى كان يتقرب إلى الله بها لا يخلو ذكر منها من اسم أو عدة أسماء من أسماء الله الحسنى .

إن الشيخ التيجانى قال : إن هذه الأسماء الكريمة لما لها من مدلولات سامية وفضل كريم ينبغى أن تصان عن كل ما يجعل منها وسيلة لتحصيل غرض دنيوى أو نفع مادى . فحرّم قراءتها للوصول إلى مطالب دنيوية ، لأن فى ذلك انحرافاً عن الطريق الصحيح الذى وجهنا الله تعالى إليه ، إن الذكر فى أساسه ومضمونه وسيلة لاستحضار عظمة الله تعالى ، وإن مدلول هذه الأذكار سواء أكانت بأسماء الله تعالى أم بغير ذلك مما ورد يتغلغل فى قلب المؤمن ويسرى فى مشاعره ويتحكم فى سلوكه ويصل به فى نهاية المطاف إلى أن يكون عبداً ربانيًّا ، متخلقاً بأخلاق الله سبحانه وتعالى . ونخلص من ذلك إلى أن قراءة أسماء الله الحسنى مطلوبة بشرط الإخلاص فيها ، والتوجه إلى الله مباشرة بتلك القراءة ، وعدم الاشتغال عنه بدنيا تستولى على الخاطر ، أو مادة تستغل الذكر للوصول إليها ، لأن الإنسان بذلك يقدم الأغراض ويتخذ العبادة وسيلة لتحقيقها ، وهو ما سماه

الشيخ التيجانى شرك الأغراض ، أو عبادة الأغراض بواسطة العبادة الشرعية .

فإذا ما جمع العبد بالذكر بين التقرب إلى الله تعالى وطلب تحصيل الدنيا فهو فى ذكره أدنى درجة ممن يخلص التوجه إلى الله والتقرب إليه بألوان الذكر وأنواع العبادة .

وقد حذر الله تعالى من الإلحاد فى أسمائه بوصفه بما ينافى قدرته أو عظمته ، أو تسميته بما لا يليق أو لم يرد عن الشرع ما يفيد صحة التسمية به ، لما فى ذلك من إساءة الأدب فى حق الألوهية أو التهجم على مواطن الخطر دون دراية أو معرفة .

وما نهى عنه الشيخ التيجانى إنما هو اتخاذ الذكر بأسماء الله الحسنى وسيلة لابتزاز الأموال من الناس واستغلالهم على وجه من وجوه الدنيا .

صلاة الفاتح

صلاة الفاتح ليست من اختراع الشيخ التيجانى ، وليست وحياً نزل عليه من عند الله ، لقد وجدت هذه الصلاة قبل الشيخ التيجانى ، وبعض صيغها مأثور عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه مذكور فى بعض الكتب المعتمدة ، ودعوى أنها وحى جلى أو خفى أو أنها من الكلام المقدس النازل من عند الله تعالى دعوى كاذبة ، ولم يقل بذلك الشيخ التيجانى أو أحد من أتباعه المعتمدين .

وعلى ذلك فمقارنتها بشىء من القرآن مقارنة غير مقبولة وغير واقعية . . ذلك لأن القرآن بلفظه ومعناه لا تتسامى صيغة من الصيغ مهما كانت إليه ، ولا يمكن أن توضع موضع المقارنة به أو المفاضلة بينها وبينه .

وما ورد من معادلة ثواب من قرأها بثواب من قرأ القرآن ستة آلاف مرة غير مقبول وغير معقول ، وهو من الأمور التى زيفت على الشيخ التيجانى فيما نعتقد . ولا يتسامى إلى القرآن غيره ، ولا يقارن به أى كلام سواه . .

وفضل كلام الله على سائر كلام البشر كفضل الله على خلقه ، ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، ويقول رسول الله ﷺ فى ذلك : « إنى لا أقول « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . ولا يتأتى أن يفرغ إنسان من الحديث عن فضل الكلام لله فى الثواب ولا عن فضله فى الهداية العامة للإنسانية ، وكل موازنة بين كلام الله وغيره إنما هى إلحاد فى الدين ، يجب أن لا يدور بذهن المسلم . .

فى تردُّدِ المريدين بين الطرق

الطرق الصوفية وسائل عملية للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالطاعة والعبادة والذكر ومجاهدة النفس والأهواء ، إنها محاولات عملية للرجوع بالمسلم إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته بالتربية والتوجيه السليم النابع من رغبة المنتسب إليها ومساعدة الشيخ أو المرشد له فى ذلك .

ومن دخل طريقة من هذه الطرق فوجد فيها ذلك ، فعليه أن لا يتركها لأنه بذلك يترك طريقاً للخير يسره الله له ، وسبيلا للتقوى وضعه الله أمامه . وهو بهذا الترك يكون هاجراً للخير ، مبتعداً عن طريق الفلاح ، يصح فيه ما قاله الرسول ﷺ فيمن ترك حلقة العلم ورجع .

هذا عن ترك الطريقة : وأما الدخول فى طريقة أخرى بعد ذلك ، فلا مانع منه مادام الدخول بقلب سليم ورغبة صادقة فى التطهر والتزكى ، وعلى من يريد الدخول فى الطريقة – أى طريقة – أن يقتنع أولا بأهمية هذا الدخول ، وأن يصدق فى العزم عليه .

ونعود فنقول : الطرق الصوفية الصحيحة واحدة وإن اختلفت فى أساليب التربية ووسائل التزكية . . فمن المعلوم أن الأذكار النبوية لا يستطيعها إنسان ، واجتهاد النبى ﷺ فى العبادة ودوام تذكره وخشيته لا يمكن الوصول إليه ، وكل شيخ من مشايخ الطرق استعذب ما استعذب ، وتمسك بما استطاع من الهدى النبوى الكريم ، ورسم طريقته على هذا الأساس ، فالأسلم السير فى طريق واحد وإن كان الانتقال عنه إلى غيره جائز فى حدود ما ذكرناه . والانتقال إذاً بهذه الشروط أن لا يشهر أو يستخف بالطريقة المتروكة وأن لا يحقر منها أو من شيخها ، وعلى من ترك طريقًا ، من ورد طريقة صوفية إلى ورد طريقة صوفية أخرى لا مانع منه مادام ترك مثل هذا الورد وتناول الورد الآخر ليس ناتجاً عن استخفاف بالورد المتروك أو تحقير له ، أو عداء لشيخ الطريقة أو أهلها أو ما إلى ذلك . . والورد فى أى طريقة لا يخرج عن كونه ذكر الله سبحانه وتعالى :

وقد كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ، وكان يغاير من صيغ الذكر ، وكان ذكره جامعاً لكل أوراد الطرق المعتبرة .

والطرق الصوفية ليست إلا ألواناً من التربية والتهذيب ، والسير بالمريد إلى طريق النجاة باتباع سنة رسول ﷺ ، على كل حال ، خاصة فى مجال الإصلاح النفسى والتهذيب الخلقى والتطهير الروحى . ومن الأدب عدم ترك طريقة إلى أخرى إلا لداع صحيح ، كعدم الاستفادة من الطريقة

أو الشعور بالضيق والحرج فيها ، أو غير ذلك من الأسباب الشرعية ، فإذا دخل فى طريقة أخرى فعليه أن يبدأ بأخذ العهد والأسباب إلى توجيه الشيخ الجديد .

بقى أن نوجه النظر معنا هنا إلى شىء هام ، وهو أن ذلك فيما إذا لم يلزم الإنسان نفسه بورد معين ويعاهد الله على التزامه ، فإن إهماله له بعد ذلك يعتبر معصية وتركاً لواجب أوفرض ، فقد جعل الله تعالى النذر فى الصالحات موجباً لفعل ما التزم الإنسان به منها قال تعالى : (وليوفوا نذورهم) وقال ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . والأولى لمن التزم طاعة أن لا يخرج عنها أو يتركها إلى غيرها .

فى الدخول فى الطريقة التيجانية ثم الخروج منها

من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام وحج وما إلى ذلك من أركان الإسلام وشروطه لا يستطيع كائن من كان أن يحكم عليه بغير الإسلام ، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

والدخول فى الطرق التيجانية ثم الخروج منها أو تركها لا يمكن أن يكون كفراً ، ولم يقل بذلك أحد ممن يعتمد من علماء هذه الطريقة أو رجالها ، ولو قاله أحد منهم فيجب أن نضرب بكلامه عرض الحائط .

بيد أن رجال الطريقة التيجانية كغيرهم من رجال الطرق الصوفية يأسفون كل الأسف ممن يخرج من طرقهم ، وذلك أنهم يرون — وهو حق — أن هذه الطرق هى معارج إلى الله ، إنها ذكر وتسبيح وتعاهد بالتزام الطاعة وتقرب إلى الله بشتى الوسائل الشرعية الصحيحة ، ومن أخذ طريقة ثم تركها يكون إذن تاركاً لطاعة قد تعهد بالتزامها وبايع الشيخ على الطاعة لله ورسوله ، وشخص كهذا يكون قد نقض ماعاهد الله عليه على يد الشيخ ، فهو لم يوف بعهده ، وهو إذن عاص وعليه أن يتوب توبة خالصة ، وأن يلتزم بعد ذلك الطاعة متخذاً طريقة أخرى ، أو راجعاً إلى طريقته الأولى أو يلتزم الطاعة دون التزام طريقة بعينها .

وكل هذا ليس خاصًّا بالطريقة التيجانية وإنما هو عام بالنسبة إلى كل الطرق الصوفية .

رأس الإمام الحسين رضى الله عنه فى القاهرة

الحسين بن على رضى الله عنه سيد الشهداء وعترة الرسول ﷺ ومن خيرة أهل بيته ، شاء الله تعالى أن يُقتل شهيداً وهو يقاوم فتنة طاغية أبت عليه إلا أن يكون وقوداً لها .

وقُتل رضى الله عنه بكربلاء ، ودفن بها . . ولكن قاتليه لم يكتفوا بما ارتكبوا من إثم فى قتله . . بل حملهم الفجور على ما هو أشنع من ذلك فاحتزوا رأسه وأحضروها إلى يزيد بن معاوية كدليل محسوس على إخلاصهم للباطل وقيامهم بواجب الفساد والإفساد .

واقتنع يزيد بما وقع وانتقل الرأس فيما انتقل إلى مصر بموكب حافل ودفن فى مكانه المعروف بالقاهرة ، وبنى عليها مسجد من أكبر مساجد القاهرة وجسمه إذن رضى الله عنه فى كربلاء ، أما الرأس فإنه فى القاهرة .

السيدة رابعة العدوية

إن قصة حياة السيدة رابعة العدوية هى قصة حياة مكافحة ، تغلب فيها الدين على الفجور ، والصلاح على الفساد ، ولقد ولدت فى البصرة فى مطلع القرن الثانى ١٨٠ هـ .

لقد ولدت لأب فقير عابد فتشربت منه العبادة فى بواكر حياتها ، وتطلعت إلى تذوق حلاوة الطاعة ، واتجهت أفكارها إلى النواحى الدينية ، خاصة فيما يتمثل فى المراقبة والخوف من الله . سألها أبوها وقد قالت : يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه ، أرأيت يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً ؟ فقالت : نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الآخرة على النار .

مات والدها وهى صغيرة ولحقته أمها ، ولم يبق لها سوى قارب تشاركها فيه أخواتها الثلاث ، شمرت عن ساعديها وعملت على تشغيله حتى قيل إنها كانت تدعى بالعدوية لأنها كانت تعمل فى تعدية الناس بقاربها من شاطئ إلى آخر ، وكانت تسمى المعداوية . ثم اختصرت إلى العدوية .

سمعت وهى فى قاربها هاتفاً ينشد بعض أبيات فى حب الله وفناء الدنيا فانجذبت إليه . . رددت قوله ، واضطرتها ظروف الحياة فى عصرها إلى ترك القارب والانطلاق فى الأرض ، وانطلقت رابعة إلى حلقات الذكر وإلى المساجد ، وإلى حياة روحية حقبة لفتت إليها أنظار الناس فى ذلك الوقت ، وشغلت مكاناً مرموقاً فى عالم الصوفية ، ولم تكن كما قيل عنها لعوباً تغترف

اللذات وتسهر الليل فى اللهو واللعب ، لقد كانت تصلى الليل كله ، فإن طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر .

ولم تترك لها هذه الحياة وقتاً للزواج ، فعاشت عذراء بتولا لأنها وجدت أنها لا تستطيع القيام بحقوق الزوج بعد أن تغلبت روحانيتها على حياتها الدنيوية .

ومن روائعها أن سائلا سألها :

إنى قد أكثرت الذنوب والمعاصى فلوتبت هل يتوب علىّ ؟ فأجابت : « لا بل لو تاب عليك لتبت » تشير بذلك إلى قوله تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) .

عمّرت ثمانين عاماً وتوفيت سنة (١٨٠) ودفنت بالبصرة على أرجح الأقوال .

فى التبرك بأسماء الله الحسنى

إن الاعتقاد فى بركات أسماء الله الحسنى سواء كانت متلوة مكررة أو مكتوبة محمولة اعتقاد سليم ، وعلى هذا فإنه لا مانع للمسلم أن يحتفظ بأسماء الله الحسنى مكتوبة محفوظة محجبة متبركاً بها ، وأن يحتفظ بها معلقة فى رقبة أطفاله مصونة بتجليدها واحترامها حتى لا يتسرب إليها ما يتنافى والتقديس .

وليس فى كتابتها والاحتفاظ بها كحجاب للكبار أو للصغار إلا التقدير وتعويد الأطفال على تقديسها .

وما من شك فى أن القرآن نزل أولا وبالذات هداية إلى سبيل الله وإلى الصراط المستقيم ، ونزل يحدد العقيدة السليمة ، والخلق القويم ، والتشريع الحكيم ، ولكنه نزل أيضاً شفاء ورحمة وحفظاً ، وهذا المعنى الأخير لا يتنافى والتعاليم الإسلامية .

فى مجالس الذكر

إن بعض الطرق لها أوراد خاصة بها لا يشاركها فيها غيرها ، وهذه تحتاج إلى تلقين لتكون أكثر تأثيراً فى النفس ، وليعرف الملقن جوها وروحها وظروفها فيكون أكثر تعرضاً لأنوارها ، بيد أن باب الذكر مفتوح على مصراعيه ، وهو فى تنوعه وسعته وكثرة المأثور فيه بحيث يرضى كل طموح من حيث المعنى ومن حيث الأسلوب ، يقول تعالى فى شمول وتعميم : (اذكرونى أذكركم) ومن الذكر قراءة القرآن . ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان بسندهما عن عائشة رضى الله

عنها : « الذى يقرأ القرآن وهو ما هر به من السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول « الم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف » .

ومن الذكر الصلاة على رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى فقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم : من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً . . ومن الذكر الاستغفار ، يقول تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توّاباً) ويقول سبحانه . . (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

وهل توجد أوقات مفضلة للذكر ؟

من أفضل أوقات الذكر الثلث الأخير من الليل .

فقد ورد ما معناه أن الله سبحانه ينزل إلى سماء الدنيا فى الثلث الأخير من الليل وينادى ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه ؟ ألا هل من سائل فأعطه ؟ ألا هل من كذا ألا هل من كذا حتى مطلع الفجر .

وما معنى نزول الله سبحانه فى ثلث الليل الأخير ؟ .

معناه تجليه سبحانه بالرحمة فى هذه الفترة من الزمن .